الجزء الثاني

العولمة والعولمة الفرعية الإقليمية

5

العولمة الثقافية في ألمانيا

هانسفريد كلنر وهانس جورج سويفنر

كثيراً ما يصاب الزوار الغربيون للجزء الغربي من الجمهورية الاتحادية بالدهشة إزاء مدى تشابه ثقافات ألمانيا السياسية، الاقتصادية، والاجتماعية مع نظيراتها في الولايات المتحدة. يبدو لكثيرين أن ألمانيا، أكثر من أي مجتمع غربي آخر، هي في طليعة نظام كوكبي ناشئ، وأن على المرء أن يبذل جهوداً خاصة ليكتشف سمات ثقافية واجتماعية تخص ألمانيا أقدم. صحيح أن المرء لا يزال قادراً على تحري بقاء الطرائق الرشيقة، المنظمة، ولكن الحميمة مع ذلك، التي كانت الحياة الألمانية تدار بها في الماضي (كثيراً ما يحلو للناس أن يشبّهوها بساعة سويسرية بالغة الجودة والدقّة)، غير أن العباءة الجديدة من البَريق الكوكبي والتكنولوجيا العالية تجعل التعرف على ما هو ألماني بصورة فريدة اليوم أمر صعب.

ما زالت عبارة «صُنِع في ألمانيا» تشير، بالنسبة إلى الأجانب والألمان على حد سواء، إلى مستويات عالية، جديرة بالثقة، ومتانة تصنيع، وهي جميعاً مواصفات تُعْتَبر ميزات ألمانية تقليدية. ثمة، مع ذلك، نوع من العناق المتردّد

بين القديم والجديد. فصورة أثاث «بيدرمير» الموضوع في أطر «لوكوربوزييه» المصنوعة من الفولاذ والزجاج تشكل مثالاً صارخاً على هذا الصعيد. غير أن الزوار ما زالوا، مع ذلك، يستطيعون العثور على القطع ذات الأساليب الفولكلورية التقليدية المصممة إقليمياً: على السروايل الجلدية البافارية والمهرجانات الأكتوبرية، على كرنفال الراين وقرى الخمر، على رغيف عيد الميلاد الساكسوني، وإلخ... إلاّ أن جملة الخصوصيات المحلية والإقليمية، وهي من بقايا دول وأمارات صغيرة سابقة وأجزاء بالقَدْر نفسه من النظام الاتحادي الألماني الحديث، دائبة على تغيير وجهها تحت تأثير قبول أو رفض سلسلة من الأنماط الثقافية المتعولمة. ثمة، على هذا الصعيد، نزعات أَقْلَمَة موجودة، كما في أي مكان آخر تقريباً في الاتحاد الأوروبي، وإن لم يكن بنفس القوة المتجلية في فرنسا، إسبانيا، أو المملكة المتحدة.

بعيداً عن هذا النزوع العام، ثمة أيضاً حدود ثقافية ألمانية خاصة فاصلة بين «الولايات القديمة» (جمهورية ألمانية الاتحادية «القديمة») و«الولايات الجديدة» (جمهورية ألمانيا الديموقراطية «السابقة») لا تزال ملحوظة، على الرغم من أن الفروق الثقافية بين هذين الإقليمين متناقضة باضطراد. فالزوار الذين غامروا وذهبوا إلى القسم الشرقي من ألمانيا بعد توحيد البلاد في 1990 م صُدموا بأوجه الاختلاف الصارخة بين الجهتين على جميع مستويات المجتمع، حيث بدا التضاد، بعد الدوران في الفلك السوفييتي مدة خمس وأربعين سنة، بين الجمهورية الاتحادية وجمهورية ألمانيا الديموقراطية السابقة، فاضحاً وباعثاً على القلق بالنسبة إلى الكثيرين. في الغرب بدا كل شيء شديد اللمعان، متطرف الحداثة، وديناميكياً؛ في الشرق كان كل شيء متداعياً، بالياً، وراكداً. ولكن الألمان الغربيين الأكبر سناً، ذوي النزوع الماضوي الأقوى وجدوا الشرق «ألمانيا دون أمريكا»، رغم صفات «العَفَن» هذه. وبالفعل فإن هذه الألمانيا اللاأمريكية تعيش حياتها الخاصة؛ في تلك الأفلام العاطفية التي تمجد المشاهد

الإقليمية التقليدية الموروثة عن ثلاثينيات وخمسينيات القرن العشرين التي تبثها قناة ألمانيا الشرقية التلفزيونية الرئيسية المعروفة باسم إم.دي.آر. MDR.

لا يلبث التضاد بين الألمانيتين أن يُبْرِز، بصورة مثيرة، مدى تغير البلاد خلال العقود الخمسة السابقة. فحين يتم استخدام المؤشرات الهيكلية الدولية لمقارنة الجمهورية الاتحادية فيما قبل 1990 م بالبلدان الأوروبية الأخرى، يتضح أن ألمانيا، عند نهاية القرن، مجتمع «طليعي» على جميع الأصعدة القابلة للتصور. فمن حيث معايير التحديث، مثلاً، تتبارى ألمانيا مع اليابان على المرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة. ومما لا شك فيه أن قوى التحديث والعولمة كانت استثنائية الحيوية هنا، وما لبثت، بعد نقل مبالغ كبيرة من الرساميل والخبرات التكنولوجية، أن بادرت حتى إلى إحداث اختراقات وبناء رؤوس جسور في الجزء الشرقي أيضاً. ظاهرياً على الأقل، بدا الشرق الألماني يشبه الغرب.

لا مجال للشك بأن الثقافة الألمانية كانت منفتحة على قوى العولمة إلى درجة معينة. فعلى الرغم من أن ألمانيا كانت في الصف الأمامي من عملية التحديث على الصعيدين التكنولوجي والعلمي منذ أواخر القرن التاسع عشر، تبقى قابليتها الاستثنائية للترحيب بالقوى الكوكبية ظاهرة أكثر حداثة. فمنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ثمة موجات عولمة عملاقة اجتاحت الجمهورية الاتحادية، مؤدية إلى إحداث نوع من الانقلاب على جميع مستويات المجتمع الألماني ربما بصورة أكثر جذرية من تلك التي تعرضت لها الدول الأوروبية المماثلة. وهذا الانفتاح الألماني الخاص على قوى العولمة لا يمكن فهمها إلاّ على خلفية صفعة الحقبة النازية وانهيار البلاد في نهاية الحرب الكارثية التي شنتها على جاراتها.

سياسياً، كان قد تعين على الجزء الغربي من البلاد، جمهورية ألمانيا

الاتحادية، أن يعيد بناء ذاته من الصفر. بعد شيء من الجدل الداخلي بين الكتل أقدم هذا الجزء على تبني النظام الديموقراطي الليبرالي الغربي، بصيغته الأمريكية الخاصة، بوصفه النموذج المعتمد. وقد حاول الدستور الألماني الجديد الذي نبذ جميع مظاهر النزعة القومية المفسدة بشكل خطر التي بات عدد متزايد من الألمان مقتنعين بأنها كانت مسؤولة عن زوال البلاد من الوجود، حماية المفاهيم الديموقراطية ذات الطراز الغربي لدور الدولة. داخلياً قام الدستور على تعزيز حقوق الفرد، سيادة الدستور، وممارسة العدل على جميع مستويات المجتمع؛ دولياً، دفع الجمهورية الاتحادية نحو اعتماد وترسيخ جملة من المفاهيم والآليات السياسية فوق القومية.

من الحقائق التاريخية المعروفة جيداً أن الجمهورية الاتحادية باتت، أواسط خمسينيات القرن العشرين، تعتبر نفسها حاملة رئيسية من حوامل المبادئ التي قام عليها الحلف الأطلسي، وما لبثت، في العقود التالية، أن برزت بوصفها المدافعة الرئيسية عن الأسرة الأوروبية. وأدى هذا النمط من السلوك إلى تعميق جذور السياسة القائمة على الديموقراطية في الجمهورية الاتحادية، التي ظلت، بالتواءاتها الصاعدة الهابطة كلها، تخدم البلاد بصورة جيدة على امتداد ما يقرب من خمسين سنة. وأدى أيضاً إلى دفع جمهورية ألمانيا الاتحادية باتجاه التصالح مع البلدان المجاورة وإلى بناء سياستها الخارجية على أساس شبكة من المؤسسات متعددة الأطراف. وفي الحقيقة فإن الجمهورية الاتحادية تعتبر نفسها اليوم نموذج الديموقراطية الليبرالية الجدير، لانطوائه على الوعد بمستقبل سياسي آمن وأكثر سخاء بالمكافآت، بالتقليد من جانب البلدان الأخرى.

اقتصادياً، كان قد تعين على ألمانيا، نهاية الحرب العالمية الثانية، أن تنطلق من العدم. كانت مضطرة، جراء تعرض البلاد للتمزيق، تعرُّض الصناعات الرئيسية للتدمير، وتدفُّق موجات هائلة من اللاجئين القادمين من

الشرق، للتحرك بسرعة وكفاءة. غير أن تعرُّض مؤسساتها الصناعية السابقة للتدمير وتفكيك مجمَّعاتها الصناعية كلها لدفع التعويضات إلى البلدان التي عانت من النزعة التوسعية اللامسؤولة لألمانيا جعلا اعتماد خطة إعادة بناء جذرية وعميقة للاقتصاد الألماني أمراً لا مفر منه. ومثل هذا التأكيد على تطوير واستحداث صناعات متقدمة أكثر وعالية الإنتاجية أَكْسَبَ ألمانيا تفوقاً تنافسياً في تعاملها مع جاراتها الأوروبيات في العقود اللاحقة.

تم إطلاق جزء كبير من عملية إعادة البناء عبر استخدام أرصدة مشروع مارشال، وأفادت البلاد من الدعم والتأييد المتمثلين بالخبرات الفنية الأمريكية في السنوات الأولى التي أعقبت الحرب. ففي عقد واحد بعد انتهاء الحرب كان الحديث عن «المعجزة الاقتصادية الألمانية» das Wirtschaftswunder قد أصبح ممكناً. جرى تصميم إعادة بناء الاقتصاد من منطلقات الكفاءة الاقتصادية و(اقتصاد السوق الاجتماعية) Soziale Market wirtschaft، تلك السمة العزيزة، منذ زمن طويل، على قلب الاقتصاد الألماني، في ظل نموذج اقتصادي خاضع لإشراف النقابات يتيح للعمال فرصة المشاركة في قضايا العلاقات الصناعية ويضمن حصولهم على حصة من الأرباح.

لعل هذا الجمع بين المشروع الحر، المشاركة الاجتماعية، والمحاصصة هو الذي ميز ألمانيا الغربية عن الوقائع التي أفرزتها اقتصادات التحكم التي سادت في الشرق الاشتراكي. وقد ساهم كثيراً في تطعيم الألمان الغربيين باللقاحات المضادة لوعود الشيوعية الخلاصية (المهدوية ـ المسيحانية). ما لبث النجاح الاقتصادي المدهش أن أَكْسَبَ الألمان الغربيين ثقة جديدة وساعد على تغيير حالة النبذ التي كانت ألمانيا تعاني منها بين الأمم، في حين اضطلع مارك ألماني مُشَيَّؤ «شبه مقدَّس» بدور التعويض عن نزعة قومية مهترئة سياسياً.

ثقافياً، ينبغي تفسير الانفتاح النموذجي للثقافة الألمانية على قوى العولمة من منطلق الأشكال العنيفة من التصدي لماضي البلاد على الصعيدين السياسي

والعسكري. على المستوى الثقافي أيضاً أدت صفعة الماضي النازي إلى الحفز على بذل مسعى لتحقيق نوع من فهم الذات على المستوى القومي كما على بحث مكثَّف عن أشكال فنية قادرة على توفير أسس وتعبيرات مشروعة لأساليب ثقافية جديدة. وقد حاولت النخب الثقافية والفكرية، من جانبها، أن تجد مكاناً لمثل هذه الأسس في مبادئ فوق طبيعية مسترشدة بنظام أخلاقي قائم على نوع من النزعة الكونية الفلسفية. برز شعار «لن يتكرر» Nie Wieder: (لا نزعة قومية، لا نزعة عسكرية، لا عنصرية، لا محرقة [هولوكوست] بعد الآن!) كضرورة جماعية، وسرعان ما ترددت أصداؤه في سائر أشكال الاتصالات المتوفرة، سواء أكانت منابر حزبية، مؤسسات تعليمية، أم جميع أشكال المناقشات والأحداث الثقافية ـ الفكرية.

من هذه الناحية تحديداً تشكلت سلسلة الجرائم، أعمال الشغب، والمسيرات التي تنظمها عصابات صغيرة نسبياً من حليقي الرؤوس اليمينيين التي تمت مؤخراً (خصوصاً في ألمانيا الشرقية) مصدر إزعاج وقلق كبيرين بالنسبة إلى ممثلي الخطابات الفكرية والجمهور السياسي الأوسع. غير أن هذه الحركات اليمينية تبقى مختلفة على الصعيدين التنظيمي والإيديولوجي عن الأشكال التاريخية للنازية ويجب النظر إليها بوصفها تعبيرات عن تيارات أكثر جِدَّة في ميدان رفض التحديث والعَوْلَمة. ومع ذلك فإن أكثرية ردود الأفعال الشعبية لا تلبث أن تتكلل بنوع من الانبهار العاجز وصولاً إلى السؤال المحرج المتمثل: كيف استطاعت مثل هذه العودة القهقرى إلى البربرية والهمجية أن تحصل، رغم جميع الجهود التعليمية والتثقيفية المبذولة في المدارس، الجامعات، ووسائل الإعلام الجماهيرية؟ إلاَّ أن نظرة متأنية تشي باستحالة الحديث عن أي انتعاش للنازية الألمانية.

لقد شكل الدور والتطور النوعيان لوسائل الإعلام الجماهيرية فيما بعد الحرب في جزأي ألمانيا كليهما تربة ردود الأفعال هذه. فالإذاعات المسموعة

والمرئية العائدة للدولة فهمت نشاطاتها على أنها «مهمات تعليمية». عدد كبير من ممثلي وسائل الإعلام اعتبروا أنفسهم محامي وجدان الجمهور وضميره وعدوا وسائل الإعلام «منبر المؤسسة الأخلاقية»، تبعاً لشعار شيلر. حتى حين تم استبدال احتكار الدولة للإذاعة والتلفزيون بنظام قائم على ركيزتي القنوات التلفزيونية الخاصة والعائدة للدولة (ألمانيا الاتحادية 1984 م)، فإن الموقف الأخلاقي والتعليمي لممثلي وسائل الإعلام فيما يخص كيفية التعامل مع الماضي النازي بصورة عامة لم يتغير. في السنوات الأخيرة، تبدو مسائل الأَوْرَبَة» و«العَوْلَمة» موفِّرة بطرائق معينة علاجاً شافياً من علل الأصولية القومية، فتحصل على دعم قوي.

على المستوى الأكثر شعبية، وَجَدَتْ وسائل الاتصالات الحديثة تربة بالغة الخصوبة لنشر منتجات الثقافة الكوكبية التي بدأت تتدفق على بلدان الغرب في حقبة ما بعد الحرب كالطوفان. كانت شبيبة ألمانيا الغربية متميزة بنوع من العزوف عن الظهور بمظهر «فلاحي أرياف» غارقين في أوحال ثقافة ألمانية بالية ومشبوهة. فالشعارات الداعية إلى التخلي عن العَفَن الألماني Muff von tausend Jahren كانت ذات شعبية واسعة جداً بين الشباب. وبهذا المعنى، يمكن القول إن ضرورة التحلي بالصفة الكوزموبوليتية أصبحت جزءاً لا يتجزأ من الملامح الثقافية للمواطن الألماني الغربي. أضف إلى ذلك أن وجود عدد كبير جداً من العمال الأجانب الضيوف نتيجة حتمية لاقتصاد البلاد المزدهر ساهم كثيراً في دفع عجلة التعددية الثقافية واللغوية الناشئة.

في ألمانيا كما في غيرها من الأماكن باتت ظاهرتا «الأحياء العرقية» و«الڤيتوات الثقافية» من الصفات المميزة للمراكز الحضرية بصورة متزايدة. وقد نتجتا، كلتاهما، عن موجات متواصلة من العمالة الوافدة، لاجئي الحروب الأهلية، والباحثين عن ملاذات سياسية. ما من مجتمع أوروبي آخر في النصف الثاني من القرن العشرين واجه التحركات السكانية التي عاشتها جمهورية ألمانيا

الاتحادية من حيث النوعية والضخامة[1]. تبقى هذه الحقيقة شبه مجهولة في الخارج وتتم مراوغتها بمزاعم الساسة المحافظين الذين يؤكدون أن ألمانيا «ليست من المهاجر». ومما أضفى زخماً إضافياً على التعددية الثقافية الألمانية المتنامية ذلك الولع الألماني الشديد المعروف بالسفر إلى الخارج.

من شأن أية مقارنة مع التطورات الثقافية الجارية في الشرق الألماني أن يكشف مرة أخرى عن مدى اتساع وعمق التحول الثقافي الحاصل في الجمهورية الاتحادية منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية. فالسور الذي أُقيم بين الشطرين أبقى الألمان الشرقيين حيث هم وحَماهم ـ خيراً كان ذلك أم شراً ـ من اجتياح قوى العولمة. كان مواطنو الشرق الألماني مضطرين للتكيف مع الوجه السلبي للقسمة السياسية والاقتصادية، في حين أفاد الألمان الغربيون كثيراً من وجهها الإيجابي.

تمخضت اثنتا عشرة سنة من الدكتاتورية النازية متبوعة بالعيش خمس وأربعين سنة في ظل النظام الشيوعي عن نوع من الاستمرار العسير لجملة المبادئ والقيم المركزية للماضي الألماني التسلطي ـ الاستبدادي. ففي ألمانيا الشرقية كان قمة على ما يبدو نوع من الانتقال شبه المباشر من اقتصاد الحرب الأوامري للنظام النازي إلى الاقتصاد الاشتراكي الأوامري لألمانيا الشرقية ومن أحد شكلي التوتاليتارية إلى الآخر. وعلى الرغم من أن وسائل الإعلام كانت قادرة على تجاوز الحدود ونجحت في شَحْذ الرغبة والاستساغة الألمانيتين الشرقيتين فيما يخص المنتجات الغربية، كما بالنسبة إلى التعبيرات والمفاهيم الثقافية، إلى درجة معينة، فإن اقتصاد ألمانيا الشرقية الأوامري، بالتواطؤ مع سياستها المركزية المستبدة، حال دون تمكن الألمان الشرقيين من الحصول على هذه المنتجات والتعبيرات.

تلك هي الطريقة التي انقلبت فيها ألمانيا الشرقية إلى مجتمع انطوائي ثقافياً مشغول بذاته في المقام الأول. وقد ساهمت آلة الدعاية التحريضية (القصف

الإيديولوجي) المميزة للشيوعية في إنتاج خليط ثقافي شاذ دأبت فيه الرغبات الكوكبية في النعم المادية على التنافس مع نوع من الرفض الرومانسي لهذه النعم ذاتها. وجراء حرمانها من خيرات النزعة الكوكبية تعين على أشكال الوجود في إطار عالم الحياة ومحراب الاقتصاد الصغيرين المزعومين (مصحوبة بدوامات السوق الرمادية) أن تنشأ وتتطور على مستوى الحياة اليومية. تمثلت أكثر سمات ألمانيا الشرقية وضوحاً بنوع من الانسحاب العام من ديناميكية الحداثة الكوكبية. فعبارة **الهجرة الداخلية** التي طبعت أجزاء من الحياة البورجوازية الألمانية في ظل النظام النازي، انطبقت على ما كان يحدث في ألمانيا الشرقية تحت الحكم الشيوعي، وإن على نطاق اجتماعي أوسع بكثير هذه المرة.

على الرغم من أن إعادة توحيد البلاد بدت موفِّرة فيضاً من الفُرَص الجديدة المنتظرة لمواطني ألمانيا الشرقية، فإن الصيغ الثقافية التي كانت قد فازت بموطئ قدم خلال الحقبة الشيوعية منعتهم من الاستفادة البارعة من تلك الفرص. فجملة العادات والأنماط المعرفية التي كانوا قد امتلكوها خلال هذه السنوات الطويلة والصعبة لم تكن قابلة لأية ترجمة سهلة إلى العادات والأساليب المطلوبة لتحقيق الازدهار في النظام الثقافي الكوكبي الجديد. ومع أن العادات الثقافية الألمانية الشرقية تبدو الآن، بعد صراع مرير، بادئة بالاقتراب ببطء من نظيرتها الألمانية الغربية، فإن جميع البيانات تشي ببقاء قدر لا يستهان به من أوجه الاختلاف بين الاثنتين، رغم التدفق الهائل للأموال على الشرق، هذا التدفق الذي ساعد، دون شك، في دفع عجلة عملية التكيف الاقتصادي.

إضافة إلى أوجه التباين الاقتصادية والسياسية المذكورة، ثمة أربعة أسباب أخرى لظهور ذهنية ثقافية ألمانية شرقية خاصة، بما فيها غياب كل من الهجرة الخارجية (الآتية من الخارج)، حرية الصحافة، وإمكانيات السياحة خلال الفترة الشيوعية، مازال السبب الرابع يمارس تأثيراً. ثمة نزعة لا أدرية دينية غرسها نظام التعليم الاشتراكي بالتوازي مع السياسة الرسمية المناوئة للكنيسة والدين خلال فترة خمس وأربعين سنة، شهدت حدوث تخلف ديني لأكثر من جيل[2].

فقط عشرة بالمئة من الألمان الشرقيين يعتبرون أنفسهم متدينين، وهذا وضع فريد في أوروبا، إن لم يكن في العالم. وبالتالي فلا نمط الحياة اليومية ولا رحيل المواطنين الألمان الشرقيين عن العالم مرتبطان بالكنيسة أو الدين كما سبق لهما أن كانا في «ألمانيا القديمة». غير أن مواصفات أخرى لألمانيا القديمة مثل جمعيات الكوارس التقليدية؛ **الشربرغارتن** Scherbergärten (الحدائق المنزلية)، المقنَّعة خلال أيام جمهورية ألمانيا الديموقراطية تحت ستار ثقافة **الداتشا** dadcha، وسائر ألوان العواطف الوطنية، تم الحفاظ عليها. تزدهر جملة هذه النزعات بصورة أقوى في ألمانيا الشرقية.

مع ترك الصدع القائم بين الألمانيتين الشرقية والغربية جانباً، يمكن التوصل إلى استنتاج يقول بوجود نوع من الفهم والرؤيا للحداثة الكوكبية في ألمانيا الاتحادية اليوم قائم على أساس الديموقراطية الدستورية، الثقة بتفوق نظام السوق الحرة المسؤول اجتماعياً، والاحترام الصريح لحقوق الإنسان. وقد لبس هذا النمط من الفهم، في الحقيقة، ثوب «دين مدني» إجماعي بين النُّخَب الفكرية، السياسية، والاقتصادية في ألمانيا إضافة إلى الجمهور العريض فيما وراء تلك النُّخَب.

غير أن هذه الركائز الداعمة لعقيدة ألمانيا ما بعد الحرب الثقافية ما لبثت أن تعرضت لموجة متصاعدة من النقد في السنوات الأخيرة. فما يحرك الجمهور الألماني اليوم إن هو إلاَّ هواجس يتم التعبير عنها بحماس حول الحاجة إلى تحقيق المصالحة، أو الموازنة، بين فوائد الأسواق الكوكبية والتكنولوجيا الحديثة وبين ما تنطوي عليه هذه الأسواق والتكنولوجيا من تكاليف فعلية أو افتراضية. يضاف إلى جملة هذه الهواجس المتنامية أشكال من الانشغال بالرعاية الحريصة للطبيعة والبيئة، اللتين تبدوان ، بنظر كثيرين، مهددتين بخطر التوسع الجامح والسائب للصناعات غير المسؤولة إلاَّ أمام ذاتها.

ثمة مجموعتا قضايا منفصلتان، وإن بقيتا مترابطتين، تهيمنان على المناقشات العامة الجارية اليوم حول مستقبل ألمانيا. تشمل المجموعة الأولى

قضايا المستوى الاجتماعي الدائرة حول الحاجة إلى الاهتداء إلى هوية ثقافية لا تذوب بسهولة في بوتقة العولمة القائمة على التجانس، رغم أن كثيرين يتبنون نمط حياة قائم على التعددية الثقافية. أمّا المجموعة الثانية فتدور حول مسائل معينة مثل: (1) كيف يتم ضمان وزيادة ترسيخ حقوق الإنسان؟، (2) ما السبيل إلى توظيف وتوجيه سوق حرة مسؤولة اجتماعياً؟، (3) كيف يمكن تطوير آليات تضمن الرعاية المسؤولة للبيئة؟، و(4) ما الطريقة الضامنة لدفع عجلة تجديد تكنولوجي مسؤول أخلاقياً؟

كما سبقت الإشارة طالما دأب الألمان، غير الغافلين قط عن أعباء ماضيهم الملتبس، على السعي لصياغة جدول أعمالهم الدولي في إطار أوروبي، وما لبثت هواجسهم أن اكتسبت قدراً أكبر من الأهمية في السنوات الأخيرة. ولاعتماد رؤيا أوروبية ناشئة، مستندة في جوهرها إلى ألمانيا وفرنسا، ظلت ألمانيا تسعى إلى حشد الشركاء المحتملين. ما يوحّد الأطراف هو اجتراحُ مسارٍ عولميٍّ لا يكون كلي الخضوع للنفوذ الأمريكي المهيمن والطاغي. يتمثل الهدف الرئيسي، بصرف النظر عن مدى الغموض وحتى التناقض الذي يكتنف تحديده، بنَحْت هوية ثقافية أوروبية مميزة. ولتحقيق هذا الهدف سيكون من الضروري إيجاد مؤسسات متمتعة بما يكفي من القوة والاستمرارية لرعاية العملية بطريقة مضبوطة مؤسساتياً. ثمة كثيرون يأملون في أن تتوفر إمكانية استخدام المؤسسات الأوروبية الموجودة لهذا الغرض، رغم احتمال تصميم أُخْرى جديدة في بعض الحالات.

وعلى الرغم من أن الوحدة الأوروبية ـ في تناقض مع حال وحدتها الاقتصادية ـ قادمة منذ بعض الوقت، ثمة أمل قوي في أن تتمكن الشبكة القائمة من المؤسسات الأوروبية المميزة من التقاط القدرة على التوجيه والقيادة التي فقدتها الدول القومية المنفردة في عملية العولمة. وبالتالي فإن رؤى الوحدة السياسية والمؤسساتية المتجاوزة لما هو اقتصادي تبقى، إذا ما تم طرح مسألة

دور الدولة في السباق الكوكبي، القضية المركزية لمستقبل ألمانيا، بل ولمستقبل أوروبا أيضاً، استطراداً.

معاينة العولمة

تتبع خطوط العولمة العريضة بشيء من التفصيل، قررتْ فرقُ البحث الألمانية إجراء ثلاث دراسات منفصلة[3]. أرادت الأولى تحري ووصف ثقافة دافوس عبر معاينة انتشار اللغة العالمية الإدارية الكوكبية بين صفوف إداريي الأعمال الألمان. تناولتْ الثانية مسائل تخص النُّخَب الفكرية الألمانية فيما يتعلق بتقاليدها، وجهات نظرها الراهنة، ورؤاها عن المستقبل. أمّا الثالثة فركَّزتْ على انبثاق أشكال من التمثيل الذاتي الثقافي في الأحداث الجماهيرية الألمانية ووسائل الإعلام.

انتشار لغة الأعمال العالمية الكوكبية بين المدراء في ألمانيا غرباً وشرقاً

تمت دراسة البنية اللغوية لنخبة الأعمال الألمانية بقدر غير قليل من التفصيل لتحديد مدى بروز إطار كوكبي نظرياً ومفهومياً في الأعمال وكيف تمكن من اختراق استعمال المدراء للغة وفهمهم لأسلوب تسيير الأعمال في النظام الكوكبي الناشئ. فالخطوط العريضة لسمات هذا الإطار المكونة وتجسدها في اللغة يشكلان اللغة المشتركة العالمية بالنسبة للمدراء الكوكبيين. إن انبثاق مثل هذه اللغة مع نمطي قبولها في كل من الألمانيتين الغربية والشرقية يسلط الضوء ليس فقط على الانحرافات الدقيقة والحساسة في المعنى على صعيد إدارة الأعمال في النظام الكوكبي على امتداد العقود الماضية، بل وعلى جملة أوجه التباين بين الألمانيتين في هذا المجال.

من المهم، بداية، ملاحظة أن العولمة الاستثنائية للأعمال تمخضت عن انبثاق عالم تواصلي مميز بين مدراء الأعمال وأرباب المبادرات. فهؤلاء المدراء، سواء أكانوا من ذوي أصول أمريكية أو ممن ينتمون إلى ألمانيا،

موحدون بأشكال مميزة جداً من فهم ما تعنيه إدارة الأعمال في السياق الكوكبي. وحسب الاحتمالات كلها نرى الأمر منطبقاً على جميع مدراء الأعمال في سائر أرجاء العالم.

يشكل استخدام اللغة الإنجليزية، بلهجتها الأمريكية غالباً، عنصراً أساسياً من عناصر عالم التواصل الكوكبي، وألمانيا بالتالي. غير أن من شأن اعتبار الإنجليزية هي اللغة العالمية المشتركة للعالم الكوكبي الحديث من منطلق بنيتها المعجمية المكشوفة فقط أن يكون خطأ. فاستخدام هذه اللغة من قبل الأمريكيين أو الألمان، يشير إلى اعتماد ترسانة من التعابير التكنولوجية الخاصة (ذات الجذور الأمريكية غالباً مرة أخرى)، وينطوي، وهذا أهم، على امتلاك مخططات فهم وتفسير مشتركة لأغراض الإدارة بالذات. اكتشفتْ دراستنا أن لغتي الأعمال الإنجليزية والألمانية المعاصرتين متشابهتان تشابهاً مدهشاً على المستوى الهيكلي للمعاني الدلالية رغم تمايزهما الظاهري في الاستعمال.

خلال العقود الماضية، مرت القاعدة اللغوية لتواصل الأعمال في كل من الولايات المتحدة وألمانيا بمراحل تطورية مختلفة يمكن تعقُّبُها عبر تحري انحرافات المعنى التي أفضت إلى صيغ مشتركة من الفهم. فعبارات مثل «نجاح»، «جهد»، «إنجاز»، «مساهمة» وما إليها، مع مرادفاتها الألمانية **إيرفولغ** Erfolg، **آنسترنغونغ** Anstrengung، **لايستونغ** Leistung، **وبايتراغ** Beitrag، مثلاً، ما زالت تستعمل بطرق راسخة منذ زمن طويل، مع أن مخططات معناها وتفسيرها لم تعد تحمل الدلالات ذاتها. لعل مثالاً يستطيع إلقاء الضوء على مدى الانحراف الحاصل.

في حين أن موضوعات الأعمال، خصوصاً في ألمانيا، كانت، في خمسينيات القرن العشرين، شديدة الميل إلى جوانب الإدارة الأكثر اتصافاً بالصفة التنظيمية، فإنها ما لبثت، في العقود اللاحقة، أن تحولت إلى روح المبادرة. في الفترة الأبكر، مثلاً، كان قاموس الإدارة (وهو ينطبق على أشياء

كثيرة تتجاوز تلك المذكورة) متركزاً على فهم يرى هدف الأعمال متمثلاً بالتوظيف الأمثل للموارد الموجودة؛ أمّا في الفترة اللاحقة فقد أصبح التأكيد متركزاً على إعادة توجيه طاقات معينة وصرفها عن ميادين الإنتاج الحالية (بصرف النظر عما إذا كانت مزدهرة، ناضبة، أو بطيئة) لتحويلها نحو ميادين نشاطات يقدر أنها ذات مستقبل. ومثل هذا النمط من إعادة التوجيه ينطوي على معنى أن مدراء الأعمال في أيامنا يَلْقون التشجيع على صعيد جعل موارد موجودة بالية لصالح نتائج مستقبلية واعدة قابلة للتخمين. وكما اتضح من خلال دراستنا، فإن هذا الانحراف أو التحول انعكس بقوة في اللغتين العادية والفنية المستعملتين.

للإحاطة بما يعنيه الفهم الجديد لتسيير الأعمال، من المهم إدراك حقيقة أن استراتيجيات تسيير الأعمال القديمة باتت مُسْتَبْدَلة بأنماط تفكير تتطلب محاولة مركزة لاستخدام الموارد المتوفرة في سبيل اكتشاف ميادين نشاط جديدة لإطلاق الأعمال. من المؤكد أن جوانب مهمة من الاستراتيجيات الراسخة، الأقدم لم تُنبذ كلياً (فشغل الشغل هو شغل آخر المطاف)، غير أن التأكيد الآن هو على الحاجة للمراهنة على أهداف توفر إمكانية توسيع مشروعات أعمال موجودة سلفاً وعاملة بكفاءة.

قد تكون هذه المشروعات ذاتها مرتبطة بإدارة المال، الإنتاج، الخدمات، وما إليها، مع الطريقة التي تدار بها هذه الأيام متركزة على المطالب المستقبلية المحتملة. وبالتالي فإن هذا ينطوي على أن هناك في الأمر ما هو أكثر من مجرد تعرف على زبائن. فالجانب المبتكر لتسيير الأعمال على المستوى الكوكبي يشتمل على التعرف على الزبائن الفعليين جنباً إلى جنب مع تقييم إمكانية توفير الحاجات المتصوَّرة المضفاة على هؤلاء الزبائن.

في هذا السياق تكتسب جدوى أسماء الماركات قدراً كبيراً من الأهمية. تكون غاية المدير حفز الزبائن على ربط حاجاتهم المحتملة (وهي لا تزال

هاجعة غالباً) باسم ماركة معينة، وعلى التخمين العقلاني لمدى إمكانية خلق «جمهور ذي شأن» لإطلاق أعمال معينة على نطاق واسع. وأهمية استخدام أسماء الماركات في الأعمال اليوم تشي بأن المنافسة متركزة على التفوق في الصور بدلاً من الأسعار.

عند هذا المنعطف لا يسع المرء إلاَّ أن يتذكر حروب الماركات المختلفة بين أنواع الجينزات الزرقاء. فبيع الملبس نفسه أساساً يعني بيع الصورة. والتنافس في ساحة البيع هو بين الصور المختلفة التي تمثلها السلع في أذهان الزبائن أكثر مما هو بين الأسعار المتباينة. وعلى الرغم من أن مستوى الجودة المهندسة لهذا المنتوج أو ذاك يبقى مهماً، فإن نوعيته في السوق الكوكبية مستمدة بصورة متزايدة من أفق حاجة الزبون. يكْمن «مَكْر» المدير في القدرة على رؤية نوعية المنتوج في سياق السوق. فالترويج «الناجح» في الساحة الكوكبية يلزم المدير بالجمع بين الاثنتين ـ المهَنْدَسة والمتخيَّلة ـ ويحفز مجموعاتٍ كبيرة من الزبائن على فعل الشيء نفسه، بصورة مثالية على صعيد كوكبي.

تكون «الحاجة» إلى شراء حقائب غوتشي Gucci المراقبة اليوم، مثلاً، متشابهة في كل من هونغ كونغ، باريس، القاهرة، نيويورك، ميونيخ، وروما. من الواضح أن مؤسسة غوتشي الإيطالية اكتشفت لدى الأفراد حاجة تحصُّنهم على جعل حقائبهم جذابة كوكبياً ـ أضف إلى ذلك أن محاولات كثيرة تُبْذَل للسطو على ماركة غوتشي وبيع حقائب مقلدة بأسعار أدنى بكثير في أرجاء العالم نظراً لأن حقائب غوتشي الأصلية باهظة الثمن.

واضح أن الترويج أصبح البُعْد المهم لثقافة الأعمال الكوكبية. وبالتالي فإن لغة الأعمال الحديثة مُشْبَعة بشحنة عالية من التعابير الترويجية على مختلف المستويات. ثمة قضايا كانت في وقت من الأوقات ذات أهمية للنجاح في السوق، مثل نسب التصدير ـ الاستيراد، لم تعد تحتل المراتب الأولى في قوائم

هموم مديري هذه الأيام. ما يهم في السوق الكوكبية هو ظهور وقبول نوع من تماهي الزبون مع منتوج معين واشتهار مواصفاته المتنوعة في مناطق مختلفة من العالم. ليس الترويج الحديث على المستوى الكوكبي مسألة تخص إتقان فن التسويق فقط. باتت المهمة الآن، رغم بقاء الترويج مهماً، متركزة على استهداف خلق الأسواق بالذات. وبعبارة أخرى، يُنْتَظَر من «المدراء» الكوكبيين لا أن يكونوا من صنع الأسواق بل صانعيها.

ثمة تحول جذري آخر طرأ في العقود الأخيرة على أسلوب العمل على المستوى الكوكبي، سواء في ألمانيا، في الولايات المتحدة، أم في أي بلد يحلم بأن يكون قادراً على المنافسة، يتعلق بالانقلاب الحاصل في المعايير الإدارية للتنظيم وتقييم الذات. فعبارة «التداؤب» المستعملة بكثافة كبيرة في لغة الأعمال المعاصرة تقدم وصفاً ناجحاً وموفقاً للتزامن فيما بين العناصر المختلفة والمتنوعة الداخلية في آلية تنظيم هذه المؤسسة أو تلك وكوادرها إذا كانت شركة معينة راغبة في أن تصبح ناجحة في الأسواق الكوكبية.

لا تهبط عملية «التداؤب» هذه من السماء. لا بد من خلقها وإدارتها تنظيمياً، فضلاً عن أن تحقيق التزامن الناجح بين النشاطات والأقسام المختلفة للشركة يشكل الوظيفة الرئيسية للمدراء الكوكبيين الحديثين. فبدلاً من تنظيم الإدارة بطرائق تراتبية مجرَّبة منذ زمن طويل، طرائق كانت سائدة خصوصاً في ألمانيا خلال عقود سابقة، تستوجب إدارة «التداؤب» قيام كبار مدراء اليوم بوقف الخطوط التراتبية الرأْسية وتنظيم نشاطات الشركة تبعاً لخطوط أفقية. وهذا يعني أن على جميع مناحي عمل المشروع أن تُدار بطرائق مبتكرة مشتملة على تلاقح الأفكار مع مستويات جديدة من الاتصال، التعاون، والتحايث المتشابك. يتمثل الهدف بتنشيط عمليتي الإدارة والابتكار، وبتحقيق معايير أداء عامة ذات مستويات عالية.

أضف إلى ذلك أن اعتزار المهنيين وولاءهم ـ هؤلاء المهنيين الذين يشار

إليهم في الغالب باسم «عمال المعرفة» في الكتابات الحديثة ـ لا يجوز بعد الآن أن يتم تحديدها، في المقام الأول، بمعايير مهنتهم أو اختصاصهم. لا بد لهما ـ الاعتزاز والولاء ـ بالأحرى من أن يتناغما مع، وينخرطا في صلب جملة أهداف المؤسسة، وظائفها، وولاءاتها. وبالتالي فإن مساهمات المحترفين الأفراد يجب أن يتم رَوْزُها بصورة متزايدة من منطلق أدائهم العام بالنسبة إلى المؤسسة أو الشركة. وهذا الانقلاب ينطوي أيضاً على أن قيام المدراء بتقييم مساهمات كوادرهم المتخصصة من منطلق نوعية عملهم لم يعد كافياً. لا بد من تحليل مساهمتهم في الأداء الإجمالي والأهداف العامة للشركة. مرة أخرى نرى أن الاستعمال المعاصر لعبارات مثل «النجاح»، «الجهد»، «الإنجاز» و«المساهمة» يعكس هذا الانقلاب الحاصل في المعنى.

عند هذا المنعطف لا بد من الإشارة إلى أن الشركات العاملة في السوق الكوكبية تقوم بتوظيف استراتيجيات وتدابير جديدة لتطوير الكوادر. ومثل هذه الإجراءات تكاد أن تكون مبرَّأة بصورة شبه كاملة من جملة المسائل التي كانت أقسام الذاتية مكلفة تقليدياً بمعالجتها. ما يهم اليوم بالنسبة إلى الشركات والمدراء هو التعرف على ما يندرج تحت عنوان «التداؤب» والعمل بما ينسجم مع ضرورات هذا التداؤب.

لعل إحدى المهمات والخطابات النظرية الإدارية المكتوبة بالخط العريض في هذا السياق متمثلة بعبارتي «الفريق» و«تطوير العمل الجماعي». ليس الهدف هنا سوى مجمعات الفرق التي تتعقب منتوجاً بعينه من بداية نشوئه إلى وصوله آخر المطاف إلى السوق وقيام هذه المجمَّعات بإذابة طاقاتها في بوتقة آلية عمل ناجحة؛ أي تحقيق عملية «التداؤب» على سائر مستويات الفعل ذات العلاقة. ومهمّات تطوير العمل الجماعي الذي هو من هذا النوع تتطلب مستوىً رفيعاً من المزاوجة المتزامنة لسلسلة من الطاقات المتمكنة في مجالات التصميم، التخطيط، البرمجة، الهندسة، والتنظيم. فقابلية خلق بيئة تنظيمية متناسبة مع

هدف تشجيع مثل هذه الأشكال الملهمة من التعاون باتت اليوم أحد شروط النجاح المسبقة. وبالفعل فإن مفهوم «تطوير العمل الجماعي» يشكل حجر الزاوية لما يشار إليه عموماً باسم «الثقافة المشتركة» و«الهوية المشتركة». باختصار، أن تكون مدير شركة ناجحاً اليوم يعني أن تكون فناناً متمكناً يتقن العَزْف على جميع أوتار هذه المهمات في الوقت نفسه. يصح هذا على جميع مدراء كوكب الأرض، ومعهم المدراء الألمان الذين ينشطون على مستوى كوكبي لأن الأخيرين ليسوا استثناءاً من القاعدة.

بعد إعادة توحيد ألمانيا في 1990 م، تمثَّلَتْ إحدى أولى المهمات المنتصبة في وجه البلد الموحد بإعادة بناء العالم الألماني الشرقي من الشركات والمؤسسات مع ثقافتها الاقتصادية بما ينسجم مع المعايير الكوكبية الناظمة سلفاً لجملة الأعمال في الغرب. وقد تطلب الأمر قلب الاقتصاد من اقتصاد خاضع للتحكم إلى اقتصاد سوق، أو، بعبارة أكثر ملموسية، تفكيك بنى المجمَّعات (**الكومبانيات** Kombinat) ذات الطراز السوفييتي وإعادة تنظيمها على شكل مشروعات ومؤسسات تعاونية قائمة على المبادرة. من نافل القول إن هذه العملية واجهت سلسلة لها أول وليس لها آخر من الصعوبات وتمخضت عن قدر هائل من الإحباط وأشكال التذمُّر المقيمة من جانب جميع الأطراف ذات العلاقة.

جرى تنظيم مهمة إعادة البناء على المستويين الحكومي والخاص. ودراساتنا لعملية تحول ثقافة الإدارة في ألمانيا الشرقية تمخضت عن كنز من المعلومات، ولعل ما يلي هي النقاط المفتاحية البارزة في مجموعة البيانات المحصلة عبر التجربة والدراسة.

من البداية، برزت الحاجة إلى إعادة تدريب مدراء المجمَّعات (الكومبانيات) الألمانية الشرقية السابقة بوصفها مهمة مركزية. فالعمل في اقتصاد قائم على السوق يتطلب، بوضوح، قَدْراً من المعرفة بآلية عمل السوق

الحديثة. إلاَّ أن المدراء، الموجهين، والمهندسين الألمان الشرقيين لم يكونوا يمتلكون إلاَّ القليل والخاطئ في الغالب من الدراية لكيفية قيام الأسواق بوظائفها. كانت قابليتهم مشحوذة بالمهارات الإدارية / البيروقراطية، وكانوا مدمنين على العمل في بنى أوامرية منظمة هرمياً. أمّا الجانب المهني للعمل في ألمانيا الشرقية فكان يقاس بمعايير الجودة الحرفية، وكان هؤلاء المهنيون ـ ولا سيما المهندسون والعلماء ـ شديدي الاعتزاز بكونهم محترفين ذوي تأهيل رفيع. وفي الحقيقة فإن المهندسين والعلماء الألمان الشرقيين كانوا، من حيث المستويات الاختصاصية المهنية، متمتعين بخبرات مهنية موازية لخبرات نظرائهم الغربيين. غير أنهم كانوا، في الوقت نفسه، غارقين في نعمة الجهل بمستلزمات العمل الناجح في اقتصاد قائم على السوق.

بادر المدراء والاختصاصيون الألمان الغربيون، بدفع من المؤسسات، البنوك، والإدارات الحكومية الألمانية الغربية، إلى تنظيم سلاسل من الدورات التدريبية بغية إطلاع المدراء والمهنيين الألمان الشرقيين على المعارف المطلوبة للعمل في اقتصاد قائم على السوق. وسرعان ما اتضح أن المتدربين كانوا، رغم امتلاكهم مستوى مؤكداً من «الكفاءة» بالمعنى الإداري والهندسي، يواجهون صعوبات كبيرة في ترجمة مهاراتهم إلى لغة «كفاءة السوق» التي أتينا على وصفها.

كان المهندسون، مثلاً، يفترضون، نموذجياً، أن نوعية المنتوج هي المهمة وحدها ـ أن النوعية بمفردها وبحد ذاتها هي المطلوبة لاجتياح أي سوق. حتى بعد تدريب الألمان الشرقيين على استخدام فنون البيع، ظلوا شديدي التقصير في مجال براعة الترويج. وفضلاً عن امتلاك اللغة الضرورية، كانت الحاجة إلى التعرف على الزبائن، تحديد أماكنهم، الوصول إليهم، أو تطوير حاجات الزبائن، لا سمح الله، تُبْقي المهنيين الألمان الشرقيين عاجزين بلا حول ولا قوة. ما كانوا لا يزالون يفتقرون إليه بعد جهود التدريب الهائلة

تمثل تحديداً بأشكال التنظير، التخطيط، التصور، وإلخ... التي اتضح أنها عناصر جوهرية للتحول إلى أطراف «فاعلة» في السوق، وفي السوق الكوكبية من باب أولي. حتى اللحظة ما زالت مكاتب التسويق والترويج في المؤسسات الألمانية الشرقية بحاجة لأن تبقى مشغولة بكثافة من قبل ألمان غربيين. وهنا، كما في أماكن أخرى، أصبح واضحاً أن الإدارة الحديثة لا يمكن تعلمها في غرفة الصف المدرسية، حتى حين يكون التوجيه على أرقى المستويات. فالممارسة ومادة الخبرة تنطويان على أهمية حاسمة حين تكون المهمات المطلوب إنجازها متطلبة للشخص «ككل».

وُجد المهنيون والمدراء الألمان الشرقيون عموماً مقاومين لبرامج التدريب الهادفة إلى توفير المعارف والمهارات اللازمة لتنمية «التداؤب» خصوصاً. قوبلَتْ ضرورة التواصل والمزامنة أفقياً، وهي جوهرية جداً لنجاح العمل الجماعي، بدرجة عالية من الريبة والشك. كثيراً ما كانوا يجادلون بأن برامج تطوير الكوادر ذات الطراز الغربي لم تكن سوى طَبْعة أخرى من القصف الإيديولوجي الذي كان قد تعين عليهم أن يتحملوه في ظل النظام الشيوعي. كانت عبارةُ «سبق لأساليب فريق العمل في الاقتصاد الشيوعي الأوامري أن أشبعتنا باستراتيجيات مماثلة» ردَّ الفعل النموذجي على هذه المحاولات.

كان المهنيون الألمان الشرقيون العاملون في الميدان الاقتصادي قد أدمنوا عادة تقديم العمل «الجاد» خلال ساعات العمل والانسحاب بعدها إلى عالمهم الخاص. أمّا مستلزمات ثقافة أعمال كوكبية ناشئة من تنشيط جهود لمرء خارج نطاق عالم العمل، من استيعاب وتمثل عادات الإدارة الكوكبية «الفعالة»، ومن التفكير بمنطلقات استراتيجية التداؤب المطلوب على هذا المستوى من العمل، فتبقى تحدياً صعباً ينتصب أمام مدراء الأعمال الألمان الشرقيين، أمام الجيل الأكبر سناً على الأقل، لا بد من التغلب عليه. وهذا كله سوف يستغرق وقتاً، نظراً لأن جملة هذه الأبعاد الجديدة لتسيير الأعمال في العصر الحديث لا

تُكْتَسب إلاَّ في غمرة واقع معاش، مفعم بالحياة. غير أن هناك دلائل تشير إلى أن الجيل الصاعد من الألمان الشرقيين بدأ يلتحق بالركب دون إبطاء.

النُّخَب الفكرية الألمانية: بين التراث، الأَوْرَبة، والعولمة

من شأن إلقاء نظرة تاريخية سريعة على تطور النخب الفكرية وتأثيرها على الثقافة القومية الألمانية أن يسلط الضوء على حقيقة أن أحداث 1945 م كانت بالغة الحسم، حتى وإن لم تبرز عواقبها على السطح إلاَّ أواخر ستينيات القرن العشرين. كان القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين شاهداً على خروج النُّخب المحافظة والإصلاحية، على حد سواء، من صفوف البورجوازية المتعلمة والطبقة الأرستقراطية. فمدراء الشركات، النُّخَب العسكرية، والموظفون المدنيون كانوا أساساً منحدرين، أيضاً، من الأصول الاجتماعية ذاتها. كان تقديم اليهود الألمان واستيعابهم يشكلان جزءاً من هذه التركيبة. باستثناء عدد قليل من «الأمميات» مثل كون حركة العمال الاشتراكيين جزءاً من الأممية وتبعية الطوائف الدينية لمؤسسات مسكونية، دأبت النخب الألمانية على اعتناق رؤىً قومية. من حيث المبدأ كان هذا صحيحاً بالنسبة إلى الحركات الإصلاحية (مثل **الفانودرفوغل** Wander vögel، حركات الشبيبة، والـ **ريفورمبيداغوجيك** Reformpädagogic) الخارجة من رحم النزعة الرومانسية الألمانية، كما بالنسبة إلى الدوائر القومية، المحافظة. وعلى الرغم من أن هذين الفريقين كانا منطلقين من وجهات نظر ورؤىً فلسفية مختلفة حول المجتمع فإن تصوراتهما كانت متشكلة على أساس فكرة الأمة.

بادر الرابح الثالث إلى توحيد هذه الرؤى ووضْع حَدٍّ لها في وقت واحد. فخططُ الفوهرر ونظرياتُه العنصرية، مع الحلم برايخ ألماني أكبر، ما لبثت أن اندمَجت لتشكل كياناً متناقضاً ومدمِّراً تمكن من استيعاب أجزاء من حركات الإصلاح. فالحركة الشبابية انقلبت إلى **شبيبة هتلر** Hitler jugend ومنظمات العمال الاشتراكيين، **البوند دويتشر ميدل** Bund Dentscher Mädel، جرى

تحويلها إلى **الفولكسفوهلفاهرت** Volkswohlfahrt و**الرايشسآربايتس دينست** Reichsarbeits dienst، والكنائس كانت شاهداً على تشكيل الدوتيش كريستن Deutch Christen. وقد تصرف الفوهور بأسلوب مماثل حين أقدم على الاعتراف بالنخب لمحافظة القديمة والمنظمات النقابية والمهنية اليمينية وإذابتها في بوتقة الجمعيات والروابط الاشتراكية القومية التي أخضعها لاحقاً لتحكمه الصارم. أدت عمليات الملاحقة، الاعتقال، والاغتيال، التي طالت الخصوم السياسيين والدينيين، وعمليات الإجهاز على «الأعراق الدنيا» وعلى «غير الجديرين بالحياة»، إلى إبقاء الأمة رازحة تحت كابوس مرعب من موروث الجرائم، العار القومي، وعدم الثقة العميق بأي نوع من أنواع المشاعر القومية الألمانية. ما لبثت هذه الهوة السحيقة في الحياة الروحية والثقافية ـ الفكرية الألمانية أن تقلصت تدريجياً بعد الحرب، غير أن ما خَلَّفَتْها من عواقب ما زالت ماثلة حتى اليوم.

دأبت جمهورية ألمانيا الاتحادية الجديدة (التي يشار إليها اليوم باسم «ألمانيا الغربية القديمة») على اعتبار الرايخ الثالث والمَحْرَقَة لا جُرحاً جماعياً فقط بل نوعاً من المبدأ التأسيسي السلبي القائم على الشعار والضرورة الجماعيين المتمثلين، كما قيل من قبل، بعبارة «لن يتكرّر!». وهذا المبدأ المؤسِّس الخارج من رحم ويلات الحرب، ما لبث أن نجح في قلب النزعة القومية الجريمة إلى إيديولوجيات فوق قومية. لقد تضافر التوجه السياسي والاقتصادي نحو الغرب مع التصالح مع فرنسا وغيرها من البلدان المجاورة في الغرب، كما مع بولونيا لاحقاً، على أداء دور مهم في هذه العملية.

ثمة نمطا توجه ثقافي برزا إلى الوجود كانا متوازيين حيناً ومتناقضين حيناً آخر: الفكرة الأوروبية من جهة ومفارقة النزعة الكونية ذات الأساس الغربي من جهة ثانية. وهذان النمطان تميزا بإقحام نزعة كونية جديدة على سيناريوهات حداثة «ثانية»، «ثالثة» أو «جديدة» في جميع الأحوال، من جهة، وعلى رفض

الأنماط الكوكبية، طوال بقائها أمريكية أكثر منها كوكبية، من الجهة الأخرى. لقد برز شكل صارخ لنوع من «المنظور الأوروبي»، غير أن التطورين كليهما، استندا إلى قدر عميق من الشك والريبة إزاء النزعة القومية الألمانية السابقة.

في الوقت نفسه كان الناس مشبعين اعتزازاً بالإشاعة الناجحة للديموقراطية، بالطبعة الألمانية لاقتصاد السوق الحرة والمسؤولة اجتماعياً، وبحكم القانون والدستور. كان هذا الاعتزاز أكثر من مجرد نزعة وطنية دستورية على الطريقة الهابرماسية: كان اعتزازاً برؤية ألمانيا عاكفة على تطبيق برنامج كوني لحداثة تقدمية. ولدى الغوص عميقاً في المواثيق السياسية المهمة عند الأحزاب الألمانية، لا يلبث المرء أن يهتدي إلى رؤيا ألمانية لعولمة قابلة للدوام بيئياً، تحترم حقوق الإنسان، تؤكد المسؤولية الاجتماعية للأسواق الحرة، وتروز التقدم التكنولوجي بمعايير أخلاقية.

في هذه العملية، يكون الأوروبيون، ميشيل الألماني وماريان الفرنسية، بالتواطؤ مع الدول الأخرى الأعضاء في «النواة الأوروبية»، هم الذين يعتبرون أنفسهم، كما بينت دراساتنا للنخب الثقافية الألمانية، جديرين بالثقة لاعتماد منظور عولمة مختلفة عن الأمركة. صحيح أن الثانية لا تزال تتمتع بالاحترام وتُعتبر منطوية على قيم مشابهة، غير أن ادعاءاتها الإمبريالية المحتملة مع سعيها لخدمة مصالحها السياسية والاقتصادية الخاصة تُعتبر مُفْرطة. «لا غبار» على لنكولن، جفرسون، مارتن لوثر كنغ، هيرمان ملفيل، مارك توين، وليم فوكنر، إيرنست همنغوي، جورج غيرشوپن مؤلف وقائد أوركسترا (موسيقي) له مؤلفات كثيرة توفي سنة 1990 ليونارد بيرنشتاين مؤلف موسيقي توفي سنة 1937 كان أول من أدخل الجاز على الموسيقى الكلاسيكية، موسيقى الجاز، موسيقى الروك، موسيقى الراب، أفلام هوليوود، الجينز، والكوكاكولا؛ أمّا الحواجز التجارية ـ الجمركية، الإملاءات العسكرية، ووسائل الإعلام متعددة الجنسيات فيشوبها شيء من الغبار.

وكما تبين دراساتنا فإن ممثلي الثقافة الألمانية في الخارج (أولئك الذين يعملون في مراكز معهد غوتة مثلاً) يرون أنفسهم ممثلين للثقافة القومية والأوروبية. يتعانون مع نظرائهم من إنجلترا، فرنسا، إيطاليا، وبلدان البنلوكس ويتطلعون إلى بلوغ فهم مشترك يرى أن أوروبا ككل تقدم البرنامج «الأفضل» للعولمة الثقافية. لقد ساهمت النخب الثقافية والفكرية الألمانية الجديدة في صياغة البرنامج الكوني المؤورب الجديد للحداثة التقدمية إلى حد كبير.

خرجت هذه النُّخَب الثقافية العائدة لفترة ما بعد الحرب من رحم الطبقات الوسطى المتعلمة، حتى جاءت موجة إصلاحات تعليمية كاسحة أواخر ستينيات القرن العشرين ومهدت الطريق أمام تقدم الطبقات الدنيا. وفي هذه الأثناء أصبح ما يزيد عن ثلث من تتراوح أعمارهم بين العشرين والثلاثين حاملين للشهادات الثانوية، مع حصول خُمس هذه الفئة على شهادات أعلى من الثانوية، فضلاً عن أن نصف عدد الطلاب في الجامعات والكليات إناث[4]. وتبعاً لذلك، لم يسبق للنخبة الألمانية الفكرية، الإدارية، والتجارية أن كانت على هذه الدرجة من التنوع.

ترعرعت نُخَب «أيام السلم» في عقدي الستينيات والسبعينيات (خُلَفاء نخبة ما بعد الحرب) محاطة بالأنماط الغربية من التفكير، الاستهلاك، وأساليب العمل. باتت فلسفات حياتهم محددة بنوع من الخلط بين الإيديولوجيات الغربية على الأصعدة الاقتصادية، البيئية، والحياتية. لا مكان لذهنيات ما قبل الحرب في هذه البيئة. وعواطف نُخَب أوقات السلم ليست مستمدة من الآفاق الثقافية لمعجزة ألمانيا الاقتصادية فيما بعد الحرب؛ يبقى موطنها الروحي متمثلاً بالجمهورية الاتحادية فيما بعد 1968 م. إنها تلك الدائبة بإصرار على تذكير الأمة بماضيها المتمثل بالرايخ الثالث وعلى المطالبة الناشطة باعتماد خط سياسي مبرَّأ من لَوْثة النزعة القومية الألمانية. فالوطن الألماني، بالنسبة إليها، هو في قلب أوروبا، ولا بد لأوروبا نفسها من أن تصبح مركزاً لنوع جديد من

الفهم السياسي فوق القومي. إن نوعاً من النزعة الوطنية ـ القومية الأوروبية يبدو علاجاً شافياً للجرح الألماني.

في العقود الأخيرة تعرضت حركات اجتماعية مختلفة في ألمانيا لعملية تغيير أخرجتْها من دائرة تمثيل مصالح جماعات متمايزة منفردة (مثل الجماعات الديموقراطية، الطبقة الوسطى الليبرالية، المثقفين، الفنانين، الحركة النسائية، الاشتراكيين، الحركة العمالية الأكثر شباباً) وأدخلتها إلى مجال تمثيل أهداف متقاطعة وأفكار كونية ـ كوكبية شاملة. بداية تركز همها على مراعاة واحترام حقوق الإنسان العامة على النطاق القومي أو على مستوى الأمميين (الكوزموبوليتيين «المتنورين»؛ أمّا فيما بعد فقد أصبح موضوعها قائماً على أساس القيمة الجوهرية الكونية والتي تبدو مكتفية ذاتياً للمجتمعات الصناعية «الغربية»: تلك القيمة الجوهرية المتمثلة بالفرد المستقل، المقرِّر لمصيره، «المتحرر» الذي يعيش متناغماً مع نفسه ومع طبيعته، سواء أكان هذا الفرد أنثى أم ذكراً. من المؤكد دون أدنى شك أن هذا البرنامج ما لبث أن أصبح القاسم المشترك الجذري الأضيق عددياً ولكن الأوسع روحياً بالنسبة إلى جميع الحركات الاجتماعية في ألمانيا المعاصرة. يبدو أنه المرجعُ النهائي للحسم والتقييم، إنه «المؤسسةُ» التي تروز سائر المؤسسات الاجتماعية الأخرى.

ليست هذه الصورة لـ «ذات متحررة» في أساسها إلاّ واحدة من بنات التنوير. ففكرة الفرد المستقل ذاتياً تعايشت، أساساً، مع شقيقاتها (**الحرية، المساواة، الأخوة**) قبل أن تنفصل لتصبح مكتفية بذاتها. أمّا الآن فقد أصبح هذا التفسير المسلَّم به، بالإجماع، بوصفه موقفاً جماعياً مشتركاً ونمط حياة جماعي لعملية التفريد، هو الرد على مجتمع بات «متعدد الثقافات» وغارقاً في «الثقافة الجماهيرية الشعبية» في الوقت نفسه. ويشكل هذا التفريد، في الحقيقة، إحدى السمات الأبرز. ومما قد يلقي مزيداً من الضوء على الأمر أن الطبقة الوسطى (المثقفة) في المجتمع الألماني الراهن تقوم بتحويل الضرورات الاقتصادية

(الاستخدام الكامل، تقسيم العمل، نوعية العمال الذكور والإناث، الحركية، تغيير أماكن العمل، و«الشركاء») إلى نوع من الهدف المرجو «صحيح أن هذا النمط من أحلام اليقظة» لا يستطيع تصويب النظام الاجتماعي الراهن، غير أنه نتاجُه المباشر وضامنُه.

وبالتالي فإن المفهوم الألماني (الأوروبي) للفردية كثيراً ما يراه مروِّجوه شديد الاختلاف عما يعنيه في آسيا، بل وحتى في الولايات المتحدة. فما يبدو جمعاً لوجهات نظر كوكبية مختلفة، وما يظهر كما لو كان المصطلح نفسه، يعتبر أوروبياً بامتياز دون أي تقاطع ذي شأن مع ما يُطْلَق عليه عادة اسم «المفهوم الغربي للذات». تشي الفروق الصغيرة في الدلالات الأمريكية والأوروبية بأن هذا المفهوم أسطورة. ومع ذلك فإن المثقفين الألمان، أعضاء نادي الكلية، يعتقدون بأنهم يمثلون قيماً كونية ـ كوكبية. يعتبرون أنفسهم منتمين إلى نظام اقتصادي ديموقراطي وشِرْعة قيم محكومَيْن بأن يسودا الكرة الأرضية على المدى الطويل وسوف يحددان، آخر المطاف، مصير «الثقافة الكوكبية».

كما اتضح من دراساتنا، يشكل هذا الإيمان الفكري الجماعي جوهر جملة الحركات الاجتماعية الجديدة التي تقوم النخب الثقافية ـ الفكرية الجديدة في ألمانيا بإطلاقها ودعمها. غير أن قادة هذه الحركات الواثقين بقوة رؤيتهم كثيراً ما يصابون بالدهشة إزاء الاستجابة الضعيفة التي تفرزها برامجهم الفكرية لدى الجمهور الأعرض.

تستمد الحركات الاجتماعية الجديدة في ألمانيا الدعمَ والأعضاء من مثقفي الطبقة الوسطى. غير أن هؤلاء يبقون، على صعيد النفوذ الاقتصادي والسياسي، غرباء، أو موجودين، في أفضل الأحوال، على هوامش مراكز صُنْع القرارات الاقتصادية والسياسية. فالأدباء، الفنانون، الصحفيون، الكتاب، مخرجو الأفلام، المعلقون، المعلمون، الوزراء، وأساتذة الجامعات، يشكلون

جميعاً الجمهور البرجوازي الذي يحاكم räsonierende Offentlichkeit، غير أنهم لا يمسكون بزمام السلطة المركزية للحراك الاجتماعي. وعلى الرغم من أن المثقفين يهيمنون على الميادين العامة المرئية والمكشوفة (وسائل الإعلام، الدعاية، الإعلان، التعليم)، فإنهم كثيراً ما يقعون في خطأ المبالغة بمدى أهميتهم. فهم يقدِّمون أنفسهم، ويكونون مخطئين في الغالب، على أنهم ممثلون ومخرجون محوريون يتولون وحدهم إدارة مسرح عام لا يمولونه كما لا يأخذهم أولئك الذين يفعلون مأخذ الجد ولا يوردونهم في حساباتهم.

على الرغم من أن المثقفين عاجزون ولا يستطيعون صُنْع الأشياء مثل «الفاعلين» الحقيقيين، فإنهم أصحاب نفوذ لا يستهان به بوصفهم مرجعية تفسيرية. فالمفكرون في ألمانيا، أساتذة السوسيولوجيا خصوصاً، يُضْفون مسْحة تفسيرية على القضايا الاجتماعية، التطورات، والأوضاع السياسية، كما يفعل أولريخ بك في ألمانيا، وصديقه أنتوني غيدنز في بريطانيا، مثلاً. يقوم نادي الكلية الألماني، مثله مثل نظرائه على المستوى الدولي تماماً، بإضفاء ظلال معاني جماعية ذات شحنة قيمية على الأحداث الاجتماعية، الأشخاص، والموضوعات، ويزود الجمهور بنظرة مُعْلَنَة أو خَفِيَّة إلى العالم وفقاً لها.

غير أن أعضاء النادي ليسوا مثقِّفين لمجتمعهم بمقدار ما هم مفسِّرو هذا المجتمع وأنبياؤه. فعبر إضفاء المزيد من المعنى على عالم غني سلفاً «بالمعاني»، في تشريحه إلى مراتب مثقلة بالقيم، عبر تسليط الضوء على قضايا معينة وإهمال أخرى، مع تأكيد أولويات معينة وإغفال احتمالات متباعدة أخرى، يشكلون ويُبْرِزُون خطوطاً فكرية جماعية يكاد المرء لا يستطيع الفكاك منها. فسلاسل القيم الأوروبية، برأي المفكرين الأَلمان، مثلاً، يجري التفكير بها نموذجياً من منطلقات كونية فلسفياً وأسس كوكبية سياسية منعكسة على هذه القاعدة دون النظر إلى أية بدائل قيمية أخرى.

كما في بلدان أخرى، تنظر فروع المنظمات غير الحكومية في ألمانيا

(مثل الغرين بيس (السلام الأخضر)، الأمنستي أنترناشيونال (لجنة العفو الدولية)، المادسان سان فرونتييه (أطباء بلا حدود)، صندوق عالم الحياة البرية) إلى نفسها، خلافاً للمنظمات الحكومية، على أنها ساعية إلى، ومطبّقة لبرنامج حقوق الإنسان وحماية البيئة. تكون فلسفاتها ونشاطاتها ذات جذور عميقة في وعي الجمهور، كما تجد برامجها، حسب ما يتضح من أرقام التبرعات الألمانية[5]، نفسها على مستوى أعمال الكنيسة الخيرية من حيث تلقي أقوى أشكال الدعم. ما يقرب من ثمانين بالمئة من الألمان الراشدين يتبرعون لصالح الأعمال الخيرية: والمبلغ المقدر بشيء من التحفظ لما جرى التبرع به سنوياً منذ سنة 1985 م هو أربعة مليارات من الماركات الألمانية ـ مع بقاء سقف التقديرات أعلى من ذلك بكثير. ما لا يقل عن ثلاثين بالمئة من هؤلاء المحسنين يدعمون منظمات غير حكومية، وهذه الاتجاهات في تزايد.

على هذا الصعيد من المثير أن نلاحظ أن منظمات البيئة وحقوق الإنسان وجدت موطئ قدم متين في كل من المؤسستين الكنسيتين اللوثرية والكاثوليكية. وهذا يبين مدى وثوق الترابط بين نادي الكلية الدولي والمنظمات غير الحكومية في ألمانيا من حيث الأفكار والتنظيم على حد سواء. تماماً كما يتم سحق الإقليميين والقوميين تحت كوابيس قيام العَوْلَمَة بالإجهاز على التراث، نجد نادي الكلية والمنظمات غير الحكومية دائمة الانشغال بهمِّ عيوب النظام العالمي (الذي لم يتم استكماله بعد في الغالب)، وهي ترى هدفها متمثلاً بفضح نقاط الضعف، الأخطاء، والإخفاقات التي تعاني منها جملة تطورات العولمة السياسية والاقتصادية، جنباً إلى جنب مع انتهاكات حقوق الإنسان والمخالفات البيئية.

من الأفضل لأولئك الذين يفترضون وجود تضارب داخلي متأصل بين نخبتي نادي الكلية وثقافة دافوس ويقولون بعدم وجود أي تواصل جدير بالذكر بينهما ـ بل وحتى يفترضون أن كلاً منهما تتحاشى الأخرى خارج الساحة

السياسية وغيرها من ميادين المعركة ـ أن يعاينوا الوضع الألماني ويعيدوا النظر. فالكنيستان الكبريان مع معاهدهما الأكاديمية، جنباً إلى جنب مع المؤسسات السياسية الأهم (مؤسسة كونراد أديناور المسيحية الديموقراطية، مؤسسة فريدريش إيبرت الاجتماعية الديموقراطية، مؤسسة ناومان الليبرالية) والمنظمات الثقافية (معهد غوتة ومؤسسة همبولدت بين مؤسسات أخرى)، تعكف جميعاً، عبر الندوات، المؤتمرات، حلقات البحث الاختصاصية، على تقديم سلسلة متصلة من الحوار بين السياسة والأعمال من ناحية ومنظمات البيئة وحقوق الإنسان من الناحية الثانية.

منظوراً إليه من منظار ثقافي يتعين اعتبار النظام الاجتماعي ـ السياسي في جمهورية ألمانيا الاتحادية نوعاً من الزواج المدروس الجامع لكل من ثقافة دافوس ونادي الكلية، مهما بدا ذلك مثقلاً بالتناقض. فهذا الزواج يمكّن جميع أفراد العائلة من الانتقال من سيناريو هذه الجماعة إلى سيناريو الجماعة الأخرى؛ فضلاً عن أن هذا الوضع ينعكس على مرآة الأحزاب السياسية. لقد بات خُضْر البيئة، آخر المطاف، جزءاً من حكومة البلاد الائتلافية التي يرأسها مستشار اجتماعي ديموقراطي يُعْتَبر هو الآخر حليفاً قوياً لألمانيا الموحدة.

تمثيل الذات الثقافي في الأحداث ووسائل الإعلام الجماهيرية

تحرص المجتمعات الحديثة على تقديم نفسها عبر وسائل الإعلام الجماهيرية بالدرجة الأولى، خصوصاً من خلال شبكاتها التلفزيونية. إنها مجتمعات وسائل إعلام من حيث كونها مزوَّدة بمنظومة علب مرايا إلكترونية توصلها بعناصر جمهورها في كل الأسر. أمّا المواد المقدمة في العلب فمرصودة ومسجلة بالكاميرات التلفزيونية دائمة الحضور على ما يبدو. تتطاول مثل قرون الاستشعار لضمان ليس فقط عدم تفويت أي نشاط اجتماعي ذي شأن دون عرض على الشاشة، بل وتأمين تقديمه كما لو كان عرضاً فنياً.

لذا فإن على كل شخص عادي أن يراهن على إمكانية إقحامه على

المشهد الإعلامي في أية لحظة معينة من حياته (حياتها) اليومية. وكما بينت دراساتنا الموسعة لوسائل الإعلام المرئية، فإن إدراك حقيقة أن من شأن المرء أن يجد نفسه فجأة في بقعة الضوء ينتمي إلى فهم عام. ونتيجة لذلك ما لبث **الأداء** (التمثيل) أن أصبح مقولة مركزية من مقولات الحياة الاجتماعية، وباتت القدرة على الأداء (التمثيل) ضرورة بالنسبة إلى الأفراد. من هذه الناحية ليس ثمة أية فروق هيكلية بين ثقافة البوب (الثقافة الشعبية)، الاستعراضات السياسية، أو الأحداث الكَنَسية.

على أساس هذا النمط، تطورت الحركات الاجتماعية في ألمانيا أوائل السبعينيات كشكل تنظيمي لم يساعد على تفعيل الأحداث الجماهيرية فقط بل وقَدَّم للمشاركين أيضاً خليطاً من التسلية التعليمية والتصوير الذاتي، من البهجة، ومن المشاركة، ممزوجة في كأس «استعراض جماعي». ففرق موسيقى البوب، المطربون الشعبيون والناشطون سياسياً، الساسة، أصحاب المقامات الكنسية الرفيعة، والنقابيون شكلوا، على مسارح متداخلة غالباً، برنامجاً لم يقف عند حدود اجتذاب جماهيرها فقط، بل وجرى ضخه عمداً عبر وسائل الإعلام تأكيداً لأهمية هذه الأحداث الجماهيرية. صارت المسيرات الممتدة أميالاً، السلاسل البشرية، ومواكب الدراجات النارية الضخمة، حسب تعبير كراكاور، تشكل ألواناً جديدة من «الزينة الجماهيرية». تقوم الفرق المحمولة بالحوامات بتسجيل هذه الزينات بكليتها لإعادة بث رسالة إلى الأمة وربما إلى العالم أيضاً ولمنح المشاركين فرصة الانبهار «مَأْثَرَتهم» وهم في غرف معيشتهم لاحقاً.

ثمة تفاعل بين التسلية (موسيقى البوب، الكاباريه) والعواطف الجماعية المؤداة (الممثَّلة) قد تسلل إلى بنية الاجتماعات الجماهيرية، بدءاً بمواكب مركز البلدة الصغيرة وانتهاءاً بأحداث ذات نطاق واسع. على جميع المنخرطين أن يبذلوا جهداً في المناسبات لجعلها أحداثاً ـ وذات معنى. لا بد من تحقيق نوع من التزامن بين العواطف خلال فترة من الزمن (بضع ساعات أو أسبوع). وقد

اكتشفت دراساتنا، في الحقيقة، أن هذا قد أصبح المبدأ الناظم لهيكلة الحركات الحديثة بالذات: لا بد للمسيرات الجماهيرية من أن تصبح **أحداثاً**، يكون كل من ينخرط فيها، مشهوراً كان أم لم يكن، مُلْزماً **بالتمثيل** (الأداء) لتغذية الروح الجماعية للمناسبة.

وفي هذا الاتجاه، ثمة نمط جديد من أنماط الحركة الاجتماعية أو «الجماهير المتحركة» ما لبث أن ظهر إلى الوجود مؤخراً، ينصب هدفه على إبراز سياسة «جديدة»، سياسة التبرؤ الحازم من السياسة مع الانطواء على قدر كبير من المعنى (مثل مواكب الحب، حالات الهذيان، عيد كرستوفر). لم تعد هذه الحركات قابلة للفهم من منطلق السيناريوهات السياسية التقليدية من قبيل «المعارضة من خارج البرلمان» أو «اليسار» أو «اليمين» ـ إنها إحدى ظواهر العولمة. وفي حين أن موكب الحب ابتكار ألماني أصيل يجتذب أيضاً ما يزيد عن مليون من المشاركين الدوليين، ما لبثت مواكب عيد كرستوفر، وهي «بضاعة مستوردة» من أمريكا، أن أصبحت أحداثاً تتجاوز شعبيتها حدود ثقافة الشواذ السفلية.

ليست هذه الأحداث الجماهيرية مع ما يواكبها من تعبير موسيقي (الهيب ـ هوب، التكنو، الراب) إلاَّ المسرح الذي يتم على خشبته، بعيداً عن أي تفضيل أو انتماء سياسيين، خَلْقُ «جماعات أنماط حياتية» قائمة على وقت الفراغ وجماليات أحداث معينة. والناس المنتمون إلى جماعات الأنماط الحياتية هذه لا يختارون أساليبهم الخاصة لإعلان أية عضوية في جماعة ملموسة، محلية، أو إيديولوجية متزمِّتة؛ بل يحاولون، بدلاً من ذلك، أن يعيشوا فلسفةً معينة يتماهون من خلالها مع أناس آخرين من النمط ذاته، أناس حتى لا يعرفونهم أكثر الأحيان. يستخدمون ممارسات و«إكسسوارات» جمالية معينة ـ ملابس، عادات استهلاكية، نشاطات أوقات الفراغ، ميول ثقافية ـ وسيلة للتماهي مع جماعاتهم وللابتعاد عن الجماعات الأخرى.

من شأن التوزيع الكوكبي لسلع الماركات المعروفة المرتبطة بأسماء مصممي أزياء «بارزين» (مثل آرماني، سان لوران، فيري، بوس، ساندر، جوب)، معدات رياضية (مثل نايك، آديداس، ريبوك، هلي هانْسَنْ)، صانعي أثاث (مثل تونت، كولاني، لوكوبوزييه، غروبيوس) أن يوفر أدوات تعرف لأشكال الترميز والتنميط الذاتيين، فالأحداث المحلية لا تلبث أن تصبح شعاراً لإحساس مشاركيها الكوكبي بالانتماء. والتخوم التقليدية التي كانت تساير خطوط الانتماءات الحزبية، أشكال النظر إلى العالم، والأصول العرقية، باتت مستبدلة بتخوم أخرى. بدلاً من اندماجها بما هو إقليمي أو قومي، «تندلق» في البوتقة الكوكبية للڤيديو كليب ـ معيار كل شيء وسقفه. ليس هذا اندماجاً بين أنماط تمثيل كوكبية وداخلية بمقدار ما هو مبدأ تمثيل ذاتي جديد ذو دوافع إعلامية كوكبية: بمقدار ما هو أداء تمثيلي يخاطب كلاً من عَدَسة آلة التصوير من جهة والأخوة المشاركين من جهة ثانية.

تقول قواعد حضور وسائل الإعلام (إذا لم تكن موجوداً في وسائل الإعلام، فأنت لست موجوداً اجتماعياً) خصوصاً، بإملاء نمط سلوك الشخصيات المهمة جداً (الفي. آي. بي.) وأولئك الذين يحلمون بأن يصبحوا كذلك. لا يكفي أن يقوم المرء بالتعبير عن وجهة نظره، معرفته المستندة إلى الخبرة، أو نظرته العالمية على منبر واحد فقط: فالمطلوب هو أن يبقى المرء «حاضراً» كل الوقت في جميع الأماكن، في المقابلات التلفزيونية، في المسيرات الجماهيرية، وفي النشرات الإخبارية، إذا كان ذلك ممكناً بصورة مطلقة.

وهكذا فإن وسائل الإعلام تشكل «سيركاً» جوالاً للشخصيات ذات الأهمية البالغة (الفي. آي. بي)، هذه الشخصيات التي تظهر وجوهها في برامج أحاديث منتصف الليل التلفزيونية، في مواكب الشوارع، في المعاهد الأكاديمية، في الجامعات، بل وحتى في الأحداث [الأعياد] الكنسية. أمّا

«فنانو السيرك» (المهرجون) فيتألفون من ذوي القامات القومية الطويلة الفعليين أو الحالمين الذين يوحون بأنهم جزء من ظاهرة إقليمية. غير أن تركيبة التمثيل والأداء الإعلاميين تبقى كوكبية، فيستطيع الناس أن يدّعوا شهرة شاملة للعالم إذا قامت القنوات القومية بتسويق «صيدها» لدى السي. إن. إن. أو الـ ن. تي. في. مساهمة منها في عملية العولمة الثقافية بأسلوب شبه كامل. ومن هذه الناحية فإن ألمانيا تنتمي فعلاً، بقضها وقضيضها، إلى عالم معولم ثقافياً.

خلاصة

فيما كنا عاكفين على دراسة العولمة الثقافية من زوايا مختلفة وفي مجالات متباينة، ما من شيء برز على أنه أكثر أهمية بالنسبة إلى التغيير الثقافي من اللغة. فأي مجتمع يستطيع أن يستورد السلع، التكنولوجيات، والأزياء دون الاضطرار إلى ترك بصمات عميقة على أساس بناها الداخلية ذات المغزى الثقافي. أمّا اللغة فوضْعُها مختلف. فطوال بقاء استعمال اللغة الأجنبية محصوراً بتوفير تبادل الاتصال بين أفراد مجتمعات مختلفة، يظل الأمر في إطار مسألة ترجمة لا أكثر. أمّا حين تبدأ كميات كبيرة من المفردات والمعاني الدلالية للغة أجنبية معينة بالغزو والاجتياح وصولاً إلى اقتحام اللغة العامية اليومية المتداولة لمجتمع محدد، فإن الوضع يتبدل جذرياً، بما يفضي إلى ترك أثر عميق على البنى ذات المعاني الثقافية لدى المجتمع المستورد. لا يسع المرء عند هذا المنعطف إلاّ أن يتذكر عبارة ويتغنشتاين «لودفيغ فيلسوف بريطاني من أصل نمساوي اشتهر بتحليلاته اللغوية، توفي سنة 1951 م الشهيرة، «إن حدود لغتي هي حدود عالمي». فالناس لا يستعملون اللغة ببراءة، و«ألاعيب اللغة» (إذا استخدمنا صورة مركزية أخرى لويتغنشتاين) المجلوبة من الخارج تجر معها عقليات وذهنيات لا تلبث نزعاتها أن تتسلل إلى الثقافة المحلية.

وكما وجدنا في دراساتنا، فإن «ألاعيب اللغة» الحديثة ذات الجذور

الآنجلو ـ أمريكية تنطوي على أهمية بالغة بالنسبة إلى مسألة العولمة الثقافية في ألمانيا. عدا عن مكانتها المرموقة جداً بوصفها اللغة العالمية السائدة في الأزمات الحديثة، نجحت اللغة الإنجليزية، شيئاً فشيئاً، وخطوة بعد خطوة، في التسلل إلى الأشكال اليومية الدارجة والعامية للتواصل في ميادين الحياة الألمانية المختلفة. فكلمات مثل «حدث event»، «أداء performance»، «روتين groove»، «سعيد happy»، و«بارد cool» باتت الآن منتمية إلى العامية الألمانية الدارجة المعاصرة، خصوصاً بين الشباب. وما يدعو لقَدْر أكبر من الدهشة هو أن هذه الكلمات تكون مثقلة بشحنة دلالية أمريكية مفرطة العَوْلَمة يصعب على القاموس الألماني أن يهتدي إلى بدائل لها.

يتجلى «غزو» الشوائب الإنجليزية لحقول اللغة الألمانية المعاصرة الدلالية بوضوح كامل في ميادين مختلفة من الحياة الألمانية اليومية، مثل الاستخدام الواسع للكلمات والتعابير ذات العلاقة بالكومبيوترات (الكومبيوترات، البريد الإلكتروني، شبكة الشبكات ـ الإنترنت) في جميع البيوت تقريباً أدت إلى نقش كلمتي مايكروسوفت وآبل على «الأقراص الذهنية الصلبة» للمواطنين العاديين، فضلاً عن أن المفردات ذات العلاقة ما لبثت أن أصبحت شرطاً مسبقاً لجملة الاتصالات اليومية والكوكبية التي هم منخرطون فيها. وعواقب مثل هذه الصيغة من المثاقفة تبقى بالغة الأهمية بالنسبة إلى قضايا العولمة الثقافية. أضف إلى ذلك، ثمة جملة الشوائب الإنجليزية التي تنتشر في المجالات الإعلامية بدءاً بموسيقى البوب، السياسة، الاقتصاد، العلوم، الرياضة، والأزياء، وصولاً إلى التواصل اليومي، تلك المجالات التي أتينا على مناقشتها.

حتى بالنسبة إلى مراقب خارجي مع شيء من الاهتمام بقضايا اللغة، فإن العبارات المجازية مثل «الأداء» و«الأحداث» كثيراً ما تبدو لَغْواً طناناً ضائعاً بين اللغتين الألمانية والإنجليزية. وثمة، أخيراً، مجال للاستشارات الإدارية والتجارية الذي تكون فيه الإنجليزية، كما رأينا، لا لغة عالمية تقنية واسعة

الانتشار فقط، بل وساحة يتم فيها شحن البنى الدلالية العميقة وأنماط التفكير لدى «الأطراف الكوكبيين» بمفاهيم تعود إلى لغة الأعمال الألمانية والإنجليزية بطريقة مشابهة إن لم تكن مماثلة.

في مواجهة هذا الإقحام للشوائب اللغوية الإنجليزية في القاموس المتداول العامي للثقافة واللغة الألمانيتين، ثمة في ألمانيا اليوم قَدْرٌ ملحوظ من الممانعة والاحتجاج. إضافة إلى التقليديين الثقافيين يجري التعبير عن مثل هذه الممانعة والاحتجاج، خصوصاً، كما أشرنا من قبل، من جانب موظفي التخطيط الثقافي وممثلي المؤسسات الثقافية الألمانية في الخارج (مثل معهد غوتة، المكتب الألماني للمبادلات الأكاديمية DAAD، المؤسسات السياسية). يقول هؤلاء بعدم جواز النظر إلى الإنجليزية نظرة بريئة باعتبارها لغة عالمية مثلها مثل اللاتينية في العصور الوسطى. يشيرون إلى حقيقة أن أية قوة عظمى سياسية لم تكن داعمة للاتينية كما تفعل الولايات المتحدة اليوم بالنسبة إلى اللغة الإنجليزية. ويرون أيضاً أن اللاتينية لم تكن قابلة للتوظيف، ولو بطريقة خفية، أداة ترويج لطموحات سياسية وثقافية معينة. أمّا فيما يخص الاستخدام المعاصر الطاغي والكاسح للإنجليزية (الأمريكية) فيعتبرونه منطوياً على شيء من الخطر على هذا الصعيد. وهم يتقاسمون وجهة النظر هذه، كما هو متوقع، مع زملائهم الأوروبيين (من المعهد الفرنسي Institute Française، وجمعية دانتي اليغري Societa Dante Alighieri مثلاً). وبوصفهم ممثلين رسميين، ينصب اهتمامهم على اعتماد ثقافة أوروبية قادرة على الصمود وحدها كـ «لاعب» في الساحة الكوكبية. سوف يتعين على المستقبل أن يثبت، على أية حال، ما إذا كانت هذه ستتكشف عن أنها رؤية واقعية.

الملاحظات

(1) للاطلاع على استعراض إجمالي، انظر بيرنهارد شيفرز وولفغانغ زايف، محررين؛ Hand wörterbuch zur Gesellschaft Dentsch land (أو بالدن: لسكن وبودرنج 1991 م)، ص 81.

(2) انظر المجموعة الإحصائية، داتنريبورت 1999 م. . . حسب الإحصاء الوارد هنا 73 بالمئة من الألمان الشرقيين يعلنون عدم انتمائهم لأي مذهب ديني.

(3) ستُنشر استنتاجات دراسة فريق بحث فرانكفورت عن اللغة العالمية الإدارية تحت عنوان: «Die Sprachwelten der Manager im Zeitalter der Globalisie rung» إمّا في مجلد مقالات مختارة أو في كُتيِّب مستقل. جرت الاستفادة من دراستين استكملتا مؤخراً.

أمّا الاستنتاجات الكاملة لفريق كونستانس البحثي عن النخب الفكرية الألمانية والأشكال الناشئة من التمثيل الذاتي الثقافي في الأحداث الجماهيرية ووسائل الإعلام، إضافة إلى دراسات أخرى عن مؤسسات ثقافية ألمانية، عن أكاديميات كنسية، وعن ممارسات شركات ألمانية في ميدان «اللاعبين الكوكبيين»، فسوف تنشر في كتاب سنة 2001.

يطيب لهنسفريد كلنر أن يعبر عن الامتنان لأعضاء فريق فرنكفورت البحثي: كارل فريدريش بوهلر، آنيتا زنكر سيباسشيان كانسي، وأنغلبرت بيترس.

أمّا هانس ـ جورج سويفنر فيسعده أن يعبر عن امتنانه لأعضاء فريق كونستانس البحثي: آن هونر، توماس لاو، بيرنت شْنَتْلر، وماركوس هابليزل.

(4) شيفرز وزايف، مصدر ورد ذكره من قبل ص: 85 وما بعدها، 167 وما بعدها.

(5) آندرياس فوس، Betteln und Spenden (برلين: دوغروتير، 1992 م)، ص: 2 وما بعدها.

6

إغراءات متنافسة ومقاومة سلبية

العولمة الثقافية في المجر

يانوس ماتياس كوفاتش

ثمة صياغة أبكر لهذا الفصل كانت بعنوان «فتنة في الفراغ»، التي هي هراء في الفيزياء، بطبيعة الحال[1]. ومع ذلك فإن المجاز جاء يعكس اثنين من المكوِّنات الأساسية للتغير الثقافي الحاصل في بَلَدي خلال فترة ما بعد الشيوعية: ما لبث نوع من الفراغ أحدثه رحيل الحضارة السوفييتية، ذلك الرحيل الذي جاء أشبه **بجلاء الرعب**، أن اجتذبت موجة من الثقافات الأجنبية إلى المجر، فوفَّر فرصةً لانتعاش ثقافات أصلية، ولقيام منافسة حادة بين هذه الثقافات بملء الفراغ.

مع استمراري في تبني أطروحة الفتنة، ما لبث إيماني بالفراغ الثقافي ما بعد النظام السوفييتي أن تلاشى ببطء. فمع استكمال دراساتنا الأولى في بودابست[2]، بات واضحاً أن من الواجب، في العديد من ميادين التحول الثقافي، استبدال مفهوم الفراغ (أو استكماله) بمفاهيم تبعية الطريق، الاحتكاك، المقاومة، والمساومة. بعبارة أخرى، هناك كثرة هائلة من الكتابات على الصفحة البيضاء المزعومة لثقافة ما بعد النظام الشيوعي - وهي كتابات يكاد مَحْوُها أن يكون

مستحيلاً[3]. وليس ما يلي إلاّ محاولة لدراسة هذه الصعوبة شبه المستحيلة.

سأبدأ بتقديم صورة نمطية لثقافة العولمة، كاشفاً النقاب عن الافتراضات المضمرة المؤلِّفة لجوهرها. ستتم بعد ذلك مقابلة هذه الافتراضات مع كل من العالم الفعلي للتغير الثقافي في المجر من ناحية والمفاهيم الدارجة للعولمة الثقافية المطروحة من قِبَل مختلف فروع أدبيات الدراسات الثقافية من ناحية ثانية وفي وقت واحد لمعاينة المقاومة المحلية. ثم ينتهي الفصل بزوجين من الاقتراحات «لدَوْزَنَة» هذه المفاهيم بما يمكِّنها من مواكبة «الكَرْنَفال الثقافي» الجاري على قدم وساق في مجر ما بعد الشيوعية.

ظاهرة صارخة بقوة

دعونا بداية نعبر عن إعجابنا بصورة فاضحة الوضوح للتغيير الثقافي الحاصل في الكتلة الشرقية السابقة. لا حاجة لأي غَرَق في المكتبات؛ يكفي أن تفتح جريدة ما في أية زاوية من العالم وتقرأ التقرير «التحليلي» الأول المُرْسَل من «تحت أنقاض الإمبراطورية السوفييتية». فحسب الحكمة الصحفية (والعلمية إلى حد كبير)، تجد أوروبا الشرقية مندفعة عبر عملية عَوْلَمة ثقافية مشروطة بانهيار الشيوعية. وعلى الرغم من أن العولمة قد تتعرض للإزعاج في بلدان معينة جراء تيار البَلْقَنَة (وهي الرواية النقيضة لقصة متدنية النوعية بالمثل)، فإنها عبارة عن أَمْرَكة ذات قاعدة ثقافية شعبية غير قابلة للمقاومة لثقافات قومية منتعشة حديثاً خارجة للتو من تحت كابوس التحكم الشيوعي[4].

من شأن تجسيد رمزي لهذه السيرورة في المجر أن يكون متفرغاً حزبياً شيوعياً سابقاً في زي قومي على صهوة جواد بري جامح على البوسنا (السهب الهنغاري) حاملاً «سندويشة» هامبرغر بيده الوسخة. تشي هذه الصورة عادة بالهدف النهائي للاندفاعة أيضاً. فبعد استبدال البطاقة الحزبية ببطاقة الائتمان (الاعتماد)[5]، سيبادر فارسُنا البطل إلى إقامة مشروعه الخاص وسيستبدل الجواد بسيارة وملابسِه التقليدية بالجينز الأزق أو بطقم مصمِّم أعمال. أمّا

القذارة (أي التقاليد البدائية) فقد تختفي جزئياً ولكن الهامبرغر سوف يبقى.

كذلك ستبقى أحقاد نشطاء معاداة العَوْلَمة والابتسامة المتعالية لليبراليين غربيين مرموقين يستعرضون القادمين الجدد من الشرق، الذين يبدون فخورين بالمشاركة في «ثورة لحاق بالركب» (إذا استخدمنا عبارة يورغن هابرماس غير الموفقة) وصولاً إلى «الذوبان في بوتقة العولمة فالاندماج بالنظام الرأسمالي». ويزعم الزاعمون أن هؤلاء الأغرار يبادرون إلى إبراز مفارقة مُحْدَثي النِّعْمة المأساوية[6]. مهووسين بنوع من جنون الذوبان في البوتقة، يميل هؤلاء إلى نسيان لغتهم الأم على طريق اكتساب رطانة إنجليزية، ويقعون في خطأ اعتبار كوميديات المواقف، العروض الغنائية، وعروض الأزياء الأمريكية ثقافة راقية، ووضع الوجبات السريعة، سيارات الليموزين العملاقة، والمشروعات السكنية في الضواحي موضع حداثة لا نظير لها.

تبقى طلباتُ هؤلاء القادمين الجدد على البضائع الثقافية ذات النوعية والمذاق الملتبسين غير قابلة للتلبية. فالرحلة الأولى للعائلة المجرية المتعَوْلمة بفرح، الممولة بمدخراتها في العالم الجديد الشجاع، تقود إلى ديزني لاند. الأَبوان يُؤْمنان بعِلْم العلوم، أمّا الابن والابنة (فيما يتصببان عرقاً في أحد أندية الكمال الجسماني) يحلمان بأن يصبحا مذيعاً تلفزيونياً أو فتاة غلاف، ويقوم الجد بكيل الشتائم لاتفاقية يالطا التي منعته، منذ ما يزيد عن أربعين سنة، من المقامرة على فورنيتاتة (وحدات النقد المجري) في كازينو بادن النمساوية، وانتقاماً من الشيوعيين سارع على الفور إلى تقديم انتساب إلى نادي الروتاري.

إضافة إلى الأطروحات المتكررة التي لا تفوت أي مراقب (مثل محطة سنة 1989 م الانعطافية، الولايات المتحدة مصدراً رئيسياً للإغواء، الاستهلاك الجماهيري حاملاً رئيسياً للمثاقفة، العولمة قانوناً فولاذياً)، تقوم صورة الفارس المجازية على سلسلة من الأطروحات المضْمَرَة ذات الأهمية المتكافئة. دعوني أذكر ثلاثاً منها.

من السَّفْيَتَة إلى الأَمْرَكَة

كان من شأن ما حدث في أوروبا الشرقية كلها سنة 1989 م أن تبقى حَدَث انفتاحٍ بريءٍ على العالم وعلى جملة التقاليد الثقافية المحلية الأصلية لشعوب المنطقة. غير أن ثورة 1989 م قامت أيضاً، وفقاً لهذه الأطروحة، بتدشين بداية إشاعة التماثل الكوكبي. وتبعاً لذوق المحلل الإيديولوجي، يتم، عادة، وصف هذه العملية بطريقتين: إمّا اندماجاً روحياً بالعالم الحر عبر قيام **الغرب** بدعم الضعفاء ولكن الموهوبين والمجتهدين في **الشرق**، في نشوة الانبهار بالنزعة الانتصارية الليبرالية؛ أو إفقاراً وإلحاقاً ثقافيين لمنطقة بكاملها، عبر استخدام خطاب ما بعد كولونيالي. غير أن التشخيصين ليسا مختلفين في العمق: من السهل اشتقاقهما؛ كليهما، من أحد مذاهب الاستعمار الأولية. فالثقافات الأجنبية المتمتعة بقوة جبارة تقوم، حتماً، باجتياح منافساتها المحلية الأصلية، استئصالها، أو تهميشها على الأقل، في حين يضطر السكان الأصليون، آخر المطاف، للاستسلام إلى المحتلين بل وحتى إلى الوقوع في حب المُمَدِّنين[7].

فيما يخص المنطقة والمجر خصوصاً، ليس هذا إلاَّ تكراراً لعقيدة السَّفْيَتَة الكاسحة القديمة ولقصة اهتداء أكثرية من السكان الأصليين إلى مكان مريح نسبياً في ظل القادة الشيوعيين ذوي العقلية الإصلاحية بعد سحق ثورة 1956 م. غير أن حقيقة شيوعية إصلاحية تلمح إلى نوع من التقمص الاستثنائي لثقافة الغزاة. إذا لم يستطع الروس (**الروسكي**) في الماضي إلاَّ أن يتكيفوا مع الثقافات المحلية بدلاً من الإجهاز عليها وإعدامها كلياً، فما الذي يوجب على المرء أن يفترض بأن الأمر سيكون مختلفاً بالنسبة إلى الأمريكيين (اليانكي)؟

استعمار سعيد الحظ وذكي

ثمة افتراض يقدم جواباً سهلاً عن السؤال السابق ألا وهو الافتراض الذي يقول بأن الثقافة السوفييتية كانت غريبة «آسيوية» وضعيفة من حيث قوتها

الإفسادية، التي هي إلزامية وتحتل المرتبة الأولى إلى هذا الحد أو ذاك، في حين تبدو الثقافة الأمريكية أقرب إلى قلوب وعقول مواطني أوروبا الشرقية، غير قابلة للقهر اقتصادياً و(جيو) سياسياً، واختيارياً طوعياً ـ ظاهرياً. يبقى التأكيد هنا لكلمة «تبدو». فيما مضى كنتَ **مضطراً** لأن تحشو رأسك باللغة الروسية؛ أمّا اليوم فأنت **تستطيع** أن تتعلم الإنجليزية (ولكن من الأفضل لك أن تفعل إذا كنت تريد الحصول على وظيفة براتب جيد) ـ ذات مرة، سمعت عبر الراديو أن بلدك قد أصبح عضواً في حلف وارصو؛ أمّا في هذه الأيام فأنت تُسْأَل في استفتاء عما إذا كنت موافقاً على دخول الناتو (غير أن من الأفضل لك أن توافق، إذا لم تكن تريد هروب الرساميل من بلدك).

حسب هذه الأطروحة ثمة جميع الشروط المسبقة الهامة لأية اندفاعة استعمارية ناجحة مخزَّنة على طرف الطلب من المعادلة. فالغازي (أو مصدِّر الثقافة باللغة الفنية الدارجة) محظوظ لأن ما يقوم بعرضه، والطريقة المتبعة في تقديم العرض، متناغمان مع الحاجات الثقافية للمستورد. أضف إلى ذلك، أن الطلب على السلع الثقافية الآتية من الغرب قد تراكمت في المنطقة عبر الحرمان القَسْري وغَسيل الدماغ السلبي اللذين دأبت الأنظمة الشيوعية على ممارستهما، مما أدى إلى جعل الاستهلاك المؤجَّل متفجراً الآن مثل بركان هائج في طول أوروبا الشرقية وعرضها.

أمّا من وجهة نظر طرف العرض من المعادلة، فإن المنافسة بين منتجي الثقافة الدوليين ليست بالغة القوة. فنظراً لبقاء تركيبة الطلب مؤمْرَكَة، يميل المستهلكون في البلدان الشيوعية السابقة إلى تفضيل النمط الأمريكي من الأسواق الحرة على اقتصادات السوق الاجتماعية الأوروبية، هوليوود على سينَسِيتا، والكوكا ـ كولا على بِرْبيه. وحتى حين يتوهمون أنهم يختارون بضاعة ثقافية أوروبية معينة، أوبرا ألمانية خفيفة، أو أغنية راب فرنسية صاخبة، مثلاً، فإن هذه الأشياء لا تلبث أن تتكشف عن حقيقة كونها تنويعات مستمدة من

الأصل الأمريكي. حتى البيزا لا يمكن اعتبارها نتاجاً أصيلاً لثقافة المطبخ الإيطالي إذا كان أحد حواملها الرئيسية في أوروبا الشرقية هو البيتزا هات[8].

يتعين على المصدِّر السعيد أن يحرص على تذكُّر بديهية واحدة: إياك أن تذكّر السكان الأصليين بالمستعمر السابق[9]! فالحاكم الجديد الذكي لا يستفز المحليين بأية إيديولوجيات غريبة أو قوة غاشمة؛ يكتفي بإفسادهم، عبر الاستهلاك وأسباب اللهو والتسلية في المقام الأول[10].

مقاومة ضعيفة

يكون المستعمِر محظوظاً من ناحية أخرى أيضاً: فهو لا يخاطر بمواجهة هجمات معاكسة قوية من جانب قوى محلية أصلية. فحسب هذه الأطروحة، ما لبثت الثقافة السوفييتية أن تبخرت بين عشية وضحاها، ولم تتوفر إمكانية تحقيق قدر كافٍ من تعبئة التقاليد القومية قبل مسارعة الغزاة الجدد إلى إغراق الصحراء الثقافية لفترة ما بعد الشيوعية. تبقى العولمة من حيث الجوهر لعبة طرفين اثنين. ثمة من جهة الغرب الخاضع لهيمنة الحضارة الأمريكية «الواحدة والوحيدة»، ذات الجبروت الكلي والبعيدة عن اللبس؛ وهناك من الجهة المقابلة، مجموعة متماثلة من الأطراف الفاعلة المتمثلة بالمجتمعات الأوروبية الشرقية غير المتمايزة بدون ملامح مميزة ohne Eigenschaften.

إذا استخدمنا لغة المتطرفين الشعبويين المجريين، فقد تعرض «العمود الفقري الأخلاقي أو المعنوي» للتحطيم على أيدي الليبراليين البلاشفة (التسمية الرمزية لليهود) وأسيادهم الأمريكيين. لقد أصبحنا «أمة من الخدم والنُّدَلاء» لدى «رأسمال المال الأجنبي الكاسر»، تماماً كما كنا قد دَرَجْنا على أن نفعل مع الأخ السوفييتي الأكبر قبل عقد من الزمن[11]. بعبارة أخرى، لم يكتف جزء كبير من تركة الشيوعية الثقافية ـ من غربة اجتماعية، نسبية أخلاقية، غياب الثقة بالنفس، العجز، وإلخ ـ بالبقاء والاستمرار بعد زوال النظام القديم بل تعزز تحت تأثير الفَرْق الشاسع بين الهوية القوية للمحتلين الجدد وخنوع وكلاء الثقافة

المحليين المنبطحين، ناهيك عن حال جماهير المستهلكين البائسة[12].

تبقى مقاومة الجمهور للعولمة الثقافية ضحلة نسبياً. فحتى الإدارات «الواعية عرقياً» في أوروبا الشرقية أفقر من أن تستطيع تمويل أية حماية ذاتية ثقافية، فضلاً عن تعرضها لقدر هائل من الضغوط الداخلية والخارجية المطالِبة بفتح الأبواب أمام التبادل والتواصل الدوليين. «خلال العقد الماضي فقدنا نحن المثقفين في البلدان الشيوعية السابقة مكانتنا كقادة رأي مثقفين ووطنيين حقيقيين، وجرى استبدالنا بحشد من المهرِّجين السياسيين ورجال الأعمال الجَهَلة، بالكومبرادور». تلك هي الحجة الباطلة التي يسوقها الشعبويون تغطية لضعفهم.

اعتراضات مباشرة

تبدو القصة كلُّها مألوفة ومكرورة منذ زمن بعيد، أليست كذلك؟ توحي كما لو كانت صادرة عن لينين، ماركوزه [هيربرت]، ولوپان، في تناغم كامل. ثمة نتف صغيرة من الحقيقة ملفوفة بوشاح من الشك والمبالغة، تؤلف رواية قائمة على القانون الفولاذي الصارم للعَوْلمة، على نوع من أنواع نظرية المؤامرة ذات البُعْد الأخلاقي، وعلى المعاداة الرومانسية للرأسمالية. وجملة هذه العقائد الجامدة تعكف الآن على تجميع فلول الشيوعيين الذين لم تتم إعادة هَيْكلتهم، القوميين العرقيين المحافظين، والشعبويين الجدد في أوروبا الشرقية وتحقيق ترابطهم المحكم مع العديد من مناوئي العَوْلمة في الغرب. في ظل الحكم الشيوعي، لم تكن كلمتا «أمريكا» و«الإمبريالية» تقترنان إلاَّ في الرطانة الحزبية لدى المتشددين الشيوعيين. أمّا اليوم فإن من الدارج إطلاق التعليقات الساخرة حول «العمامة الثقافية» ذات المنشأ الأمريكي مثله تماماً مثل الضحك من أفلام الحرب السوفييتية المبتذلة قبل خمسة عشر سنة. أضف إلى ذلك، أن هذه البروتة (الرقصة الدائرية) تتم تأديتها حتى من قِبَل ليبراليين مزعومين في المجر، أحد أكثر بلدان الكتلة الشرقية السابقة تَغَرُّباً.

هل هم أوصياء حقيقيون مكلَّفون بحراسة الثقافة النُّخْبَوِيَّة والشعبية، أم متغطرسون يرفضون الحضارة الأمريكية **جملة** دون الانتباه إلى طبيعتها الغنية بالألوان؟ هل يخافون التأثيرات المُهْلِكة لعالم الماكدونالد ويشعرون بالعجز أمام طغيان السوق في المجالات الثقافية، أم يندبون، أولاً، امتيازاتهم الخاصة الضائعة في غمرة المنافسة المسعورة؟ هل هم معادون لـ «الفظاظة الجديدة» لأنهم شديدو الحذلقة والرُّقي، أم لأنهم مصابون بالوهن وموت الأحاسيس؟ من المؤكد أن سخطهم عاطفي من حيث الجوهر.

رغم البلاغة المكثفة التي تفضّلها الأحزاب القومية[13]، فإن هذه الأحزاب تسارع، لحظة وصولها إلى الحكم، إلى الإحجام عن العمل الشاق (وغير المحبب شعبياً ربما) المتمثل بدعم المبادرات القاعدية الرامية إلى الحفاظ على التقاليد العرقية. وعلى الرغم من أن المثقفين الملتفين حول هذه الأحزاب يتذمرون من انخفاض عدد البرامج المحلية المعروضة على شاشة التلفزيون، فإنهم ما زالوا بعيدين كثيراً عن الالتحاق بركب الجماعة الهنغارية الصغيرة من المعادين للعولمة على النمط السياتلي وعن إطلاق حملات «اشتروا البضائع المجرية!»، تحطيم مطاعم الوجبات السريعة (فرنسا)، أو الاحتشاد عند الأسوار المحيطة بثكنات الناتو (ألمانيا). ولكن هل معنى كون مظاهراتهم الاحتجاجية ضعيفة ألاَّ تكون المقاومة العفوية، السلبية للثقافة المستوردة قوية بالضرورة[14]؟ وما الداعي للمقاومة أساساً؟

كرد فعل أول دعونا نعاين «الشرير الرئيسي»، مطاعم الماكدونالد، للحظة. لقد تعلم نقادها في أوروبا الشرقية (ربما من أساتذتهم الإيديولوجيين السابقين) أن الرأسمالية تبدأ مع «سندويشة» الهامبرغر الأولى، وقد تقف أيضاً، فيما يخص الجودة، عند ذلك الحد. غير أن «سندويشات» الهامبرغر في هذا الجزء من العالم تتنافس مع خلائف الكرات اللحمية الزائفة المُدْهِنة التي كانت تقدم في مطاعم «الكانيتنات» العامة ذات المواصفات الصحية الملتبسة بدلاً من

المطبخ الفرنسي الراقي. هل يستطيع المرء أن يتنبأ باضمحلال الحضارة التشيكية، المجرية، أو الروسية، حين يعلم أن مطاعم الوجبات السريعة متميزة بثبات جودة الطعام، بنظافة دورات المياه النسبية، وبالامتناع عن إجبار الزبون على تقديم «البخشيش» إلى عناصر جهاز العاملين؟ تبقى هذه، آخر المطاف، جملة الإنجازات التي لم يسبق لأحد أن سمع بها في معظم المطاعم المحلية.

وعلى أية حال، هل ستعني الرِّيَسن (الكستليتة) الڤينيّة (نسبة إلى ڤيينا عاصمة النمسا) تقدماً ذا توجه أوروبي مقارنة ماك الكبير؟ أولئك الذين يظنون أنها ستفعل (أي الأعداء الجدد لأمريكا والمرتابون منها في أوروبا الشرقية) يبدون هاربين إلى الفقدان الجماعي للذاكرة. ثمة قواعد ثلاث قد تساعد هؤلاء على إهمال أكثرية المميزات الثقافية الإيجابية التي يوفرها انفتاح الإمبراطورية الشيوعية على العالم، ألاَ وهي: إضفاء الصفات الشيطانية على ثقافة البوب الأمريكية، تضخيم وتشويه أوجه الاختلاف مع الحضارة الأمريكية (أي المتدنية) ونظيرتها الأوروبية، بما فيها المجرية (أي الراقية)، وتمجيد ذكرى النظام السوڤييتي[15].

أو دعونا نأخذ مثالاً فضاء المعلومات الذي يتعرض للشجب الدائم في الشرق كما في الغرب بوصفه ناقل النفايات الثقافية. غير أن من الأصعب بكثير، فيما أعتقد، شجب ثقافة الشبكة في أوروبا الشرقية لأن مواطني هذه المنطقة ما زالوا يتذكرون أن آلات التصوير (الفوتوكوبي) والفاكس، ناهيك عن الآلات الكاتبة، كانت خاضعة للرقابة، وأن الرسائل والمخابرات الهاتفية كانت تُراقَب بصورة منتظمة ومنهجية من قبل السلطات[16]. بالمثل، كيف يمكن للمرء أن يحتج على غباء ڤيديو كليپات الإم. تي. ڤي MTV إذا كانت المارشات الشيوعية الصاخبة، الأنغام المقلدة لموسيقى الروك آند رول (كاملة بنصوص مراقبة) والموسيقى الشعبية المصطنعة والمفبركة هي البدائل منذ زمن غير بعيد في العديد من بلدان الكتلة السوڤييتية؟

دي غَسْتيبوس... De Gustibus

لا شك أن هذه المقارنات تميل إلى فقدان مصداقيتها مع مرور السنين. غير أن التخطيط الثقافي الرسمي في عدد غير قليل من الأنظمة الشيوعية السابقة يحاول، المرة بعد الأخرى، تمجيد الماضي وإضفاء الصفة المثالية عليه عبر حماية التخلف «مدْهن ولكنه محلّي»، الرقابة «قاسية ولكنها فولاذية القبضة في التعامل مع المجرمين أيضاً»، والهراء القومي ـ الوطني ـ الشيوعي «بسيط ولكنه غير عنيف»، إذا أردنا الاقتصار على الأمثلة السابقة وحدها. صحيح أن المرء يستطيع أن يزعم، بشيء من التسويغ (وقليل من الواقعية)، أن انفتاح الثقافات في الكتلة الشرقية السابقة كان من الممكن أن يتم بطريقة «محترمة» أكثر. ما الداعي لإنكار حقيقة أنني أنا نفسي أيضاً أجد أحياناً صعوبة في تعليق ميولي الأوروبية الوسطى المفضِّلة لثقافة النُّخْبَة ولأشكال التميز بين ثقافة جماهيرية «ذات ذوق رفيع» وأخرى «عديمة الذوق»؟

إلاَّ أن مجموعتنا في هذا المشروع البحثي قَرَّرَتْ أن تتجنب مجابهة الثقافات «الراقية» و«الوضيعة» والاستغراق، بطريقة متباهية، في نوع من تقييم الأداء الثقافي. فقد أردنا، بدلاً من ذلك، عبر حفر عدد من الآبار الاستكشافية في عمق التطور الثقافي في المجر، أن نفهم ما يفضل معظم المراقبين أن يفسروه استنتاجياً أو بداهة.

كان غَرَضُنا، أساساً، بريئاً من السياسة: عبر تقديمنا لقضيتنا، لم نرغب في تَوفير الذخيرة لأية حَمْلَة رافعة لشعار «الكوكبي جميل!». ما من أحد منا إلاَّ وتساوره الشكوك حول شخصية تاجر المخدرات الألباني، موظف بروكسل البيروقراطي الذي يحمل رأساً من الصخر، المتأنّق، المتطوِّس، زعيم الطائفة المتعصب، أو الأصولي المنتمي إلى حركة الخُضْر ـ لذكر غيض من فيض هويات الأطراف الفاعلة الجديدة في اللعبة المعروفة باسم «التحول الثقافي في أوروبا الشرقية». أَوْ مَنْ منّا يستطيع أن يصفّق لبعض مشاهد العملية الحديثة مثل

ركن التسوق (الشوبنغ مول)، مطعم الوجبة السريعة، السينما ذات الشاشات المتعددة، وشاشة الكومبيوتر دون ابتسامة حزينة؟ أخيراً مَنْ منّا كان يعتقد بأن من شأن انفتاح الإمبراطورية السوفييتية الثقافي ألاّ ينطوي على علاقات قوة جديدة بين الشرق والغرب، متمخضاً عن عدد كبير من الخاسرين مئة بالمئة الغارقين في بحر أزمة هوية بالغة الخطورة أو في أشكال مختلفة من الإفقار الثقافي ـ في أحسن الأحوال؟

طلباً للأدلة التجريبية ـ في أية ميادين، بأية وسائل[17]، وعبر أي نوع من الافتراضات؟ ـ مع البقاء داخل إطار الفرضيات الأولية للمشروع الإجمالي[18]، أَضَفْما بعداً بحثياً إضافياً ـ ذا علاقة بسنة 1989 م تحديداً ـ يطيب لي أن أطلق عليه اسم «اللَّبْرَلة الشاملة». وهذه تغطي جميع أعمال تفكيك النظام القديم وإقامة نظيره الجديد، متدرجاً من العفو السياسي إلى الحرية الدينية، من حقوق المرضى في الرعاية الصحية إلى قابلية النقد للصرف، من تبرئة الجنسية المثلية إلى حل الميليشيات العمالية[19]. برزت سلسلة من الأسواق والديموقراطيات عبر المنطقة في أثناء سيرورة كتابة مجموعة من الدساتير الطموحة وبناء جملة من المؤسسات، التي تأثرت بقَدْر هائل من البضائع الثقافية المستوردة من الغرب. وبسبب الأهمية الفائقة لهذا البعد في فترة تحول ما بعد الشيوعية (خصوصاً في السنوات التأسيسية الأولى)، جرى تكريس سلسلة كاملة من الدراسات الميدانية للعملية في مشروعنا الفرعي المجري. فحوادث الالتحاق بالناتو، اعتماد قانون وسائل الإعلام غير الشيوعي الأول، إصلاح الجامعات، وتأسيس الصندوق القومي للثقافة تشكل جميعاً نقاط علام لرصد مصائر اقتباس، إعادة تشكيل، و/أو الرفض اللاحق للمعايير، الأفكار، والمؤسسات الغربية في أعقاب ثورة 1989 م.

تمت دراسة تأثيرات «ثقافة دافوس» في ثلاثة ميادين مختلفة: في تفاعلها مع تركة ممارسات الأعمال «المتشابكة ـ المكثَّفة» (الفاسدة بلغة أقل صقلاً)

النموذجية في ظل الشيوعية المتأخرة؛ في صور للمجر وأوروبا الشرقية عموماً طوَّرَها مدراء تنفيذيون لشركات متعددة الجنسية؛ وفي أنصاف الانتصارات التي حققها التيار الرئيسي للاقتصاد الكلاسيكي الجديد في الفكر الاقتصادي المجري.

أمّا في الأوراق التي تناولت إصلاح وسائل الإعلام، اللغة الإنجليزية في المجر، مؤسسة شوروس، والمشاركة المجرية في معرض فرانكفورت للكتاب، فقد تمت مناقشة مختلف تأثيرات «ثقافة نادي الكلية». غير أن الحالة الأولى المدروسة في فريق بحثنا تمثلت بالحركة النسوية، ذلك المثال الصارخ لجهود العولمة الفاشلة التي بذلها نادي الكلية في معظم البلدان الشيوعية السابقة. وقد تمت معاينة حامل آخر مهم للعولمة الثقافية في اقتراح المشروع الإجمالي، حامل البروتستانتية الإنجيلية، في الإطار الأوسع للحركات الدينية الجديدة في المجر.

بين ميادين البحث المخطَّطَة واحد فقط، هو ميدان عالم الماكدونالد، يفتقر إلى قدْر أعمق من التحليل. أمّا السبب الكامن وراء إيلاء اهتمام أقل لهذا الموضوع الحاسم فنتلمسه في خوفنا من تكرار بديهيات مألوفة عن الكوكا ـ كولا، الجينز الأزرق، وألْفيس بْرَسْلي. ولسد هذه الثغرة تطوعتُ أن أوضح جزءاً كبيراً مما أريد قوله، في جميع الأحوال، في هذا الفصل، بالاستعانة بأمثلة مأخوذة من الساحة الثقافية للاستهلاك الجماهيري.

بما أن كلاً من حوامل العولمة يستخدم اللغة الإنجليزية للتواصل، فقد رأينا أن من الضروري ضرورة مطلقة إيراد دراسة ميدانية لآليات «حاملة الحوامل» تلك في المجر. في الوقت نفسه، ثمة موضوعات بحثية إضافية طرحتها: (1) التركات الثقافية الموروثة عن الحضارة السوفييتية، (2) زيادة كبيرة في البضائع الثقافية **غير الغربية** المستوردة بعد 1989 م، و(3) المسألة «المجرية النموذجية» المتمثلة بما إذا كان بلد صغير متوسط الدخل، فخور

تقليدياً بمواهبه الثقافية[20]، مقدراً له مسبقاً أن ينسخ ثقافات أجنبية ويعيد صياغتها، أم يستطيع أيضاً أن يصبح قادراً على البث المضاد؛ أي على تسويق بعض إنتاجه الثقافي كوكبياً.

تتم مناقشة الموضوع الأول في مقالة عن تحرير الثقافة المجرية من الطابع السوفييتي، في حين تجري معاينة الثاني عبر مثال الجالية الصينية في هنغاريا. أمّا الموضوع الثالث فيتم بحثه في دراسة تتناول تصدير الأدب المجري عبر معرض الكتاب بفرانكفورت. من المؤسف أن فريق بحثنا لم تتوفر له بعد فرصة استكشاف الجوانب الثقافية لاثنتين من العمليات الكبرى المناوئة جزئياً للعولمة: عملية الأَوْربة من جهة وعملية انتعاش أوروبا الوسطى من ناحية ثانية، في دراستين منفصلتين. وأنا أحاول سد جانب من هذه الفجوة في هذا الفصل.

فرضيات إضافية

كثيراً ما تكون خصوصية الحالة المجرية على صعيد العولمة الثقافية مستمدة من قوالب شائعة مثل: بلد صغير بلا أقارب، مفتوح على العالم، واقع على مفترق الطرق بين الشرق والغرب، **دائرة ثقافية** Kulturkreis) أوروبية (ألمانية)، متعاون روتينياً مع المحتلين، ذو تراث شيوعي كلبي (اشتراكية سوق)، نزعة قومية معتدلة، درجة عُلْيا من العولمة، غياب الخوف المرضي من الروس، بلا أحقاد تجاه الولايات المتحدة[21]، تقاليد كوزموبوليتية قوية، لَبْرَلَة سريعة بعد 1989 م، إلخ.

من شأن تعداد جملة هذه السمات محلياً أن يدفع معظم المراقبين إلى الاعتقاد بأن أي بلد في العالم لا يمكن أن يتعرض لاجتياح الغزو الثقافي الغربي إذا لم تكن المجرد «ثقافتها الضعيفة»[22] محكومة بالقَدَر بأن تبقى عُرْضَة لمثل هذا الاجتياح. كانت فرضيات العمل لدينا تعكس منطقاً معكوساً: كيف يكون ممكناً حتى بالنسبة إلى بلد «لا حول له ولا قوة» كهذا، بلد من شأنه أن يبدو محكوماً بأن يبقى ألعوبة بأيدي قوى العَوْلمة، أن يبدي قدراً غير قليل من

المقاومة لهذه القوى بالذات؟ ولأقر مباشرة أن هذا السؤال متجذر في التربة الطيبة لنزعة الشك العريقة في أوروبا الوسطى: إذا سارت هذه الكثرة من الأمور في مسارات خاطئة في هذه المنطقة، فما الذي من شأنه أن يجعل العَوْلَمة استثناءاً؟

لنعد إلى فارسنا المنطلق (القافز، بعبارة أكثر دقة) من الشيوعية إلى قلب الرأسمالية. لا بد لمثل هذه الكليشيهات من إثارة ريبة القارئ، شرط أن يكون قد أمضى عدداً من السنوات في المجر (أو في بولونيا أو سلوڤينيا أيضاً بالمناسبة) قبل 1989 م وبعده. يمكن للمرء أن يسأل: ما الذي يحصل للتشبيه إذا كان السيد الشيوعي قد أَقْدَم سلفاً على استبدال العديد من المستلزمات الثقافية القديمة، مثل الجواد والزي القومي، في ظل النظام القديم؟ ماذا إذا بادر إلى تزيين سروال الجينز الأزرق الذي يرتديه بنقوش مأخوذة من التراث الشعبي منذ ستينيات القرن العشرين، إذا كان يفضل الطعام الياباني أو الإيطالي على «سندويشات» الماكدونالد، إذا كان يشتري الفولكسڤاغن أو التويوتا ولكنه يحتفظ بسيارة الترابانت القديمة الموجودة عنده؟ حين سمحت له السلطات الشيوعية كان قد سافر إلى الغرب مرتين بتلك السيارة قبل عقدين اثنين من انهيار الإمبراطورية السوڤييتية. ربما كان أحد أعضاء **الجهاز الحزبي المتفرغ**، غير أن زوجه كانت تملك مؤسسة مزدهرة في صناعة الأزياء على التخوم الدقيقة الفاصلة بين الاقتصادين الرسمي وغير الرسمي (الأبيض والأسود / المركزي والهامشي). ربما كان الزوجان قد التقيا في حفلة موسيقى روك نظّمتها رابطة الشبيبة الشيوعية في السبعينيات أو في أحد أندية اليوغا (منظمة تتستر وراءها حركة الكريشنا) في الثمانينيات. ما الذي يتعين علينا قوله عن العولمة الثقافية إذا كانت قد قرأت الأدب الفرنسي الحديث قبل عشر سنوات ولكنها، بعد قيام شركة متعددة الجنسيات منافسة بإخراجها من السوق وصارت تعمل لدى أحد التجار الصينيين، باتت مضطرة للاكتفاء بالاشتراك في الهوب HOB؟ وأخيراً، ماذا إذا بقي زوجها شيوعياً، ملتفاً الآن بعباءة قومية، أو، قرّر، على النقيض

من ذلك، أن يتحوّل إلى ناشط في حركة حقوق الإنسان داخل منظمة دولية غير حكومية وهو مشغول، في أوقات فراغه، بوصفه من محبّي غوسيب فيردي، بنسخ المقطوعات الأوبرالية عن الشبكة؟.

بعبارة أخرى، (1) بدأ «توغل» الغرب على صعيد الثقافة ذات القاعدة الجماهيرية في المجر قبل سنة 1989 م بسنوات وعقود؛ (2) كان المرء قادراً على أن «يتعولم» على صعيد الثقافة الراقية في ظل النظام القديم أيضاً؛ (3) ما يجري استيراده اليوم ليس بالضرورة ثقافة تافهة ومبتذلة؛ (4) راهناً، قد يميل المجريون إلى تفضيل بعض الأنماط الثقافية غير الأمريكية (الغربية منها والآتية من الشرق الأقصى) ـ بمعنى أنهم يواجهون إغراءات متنافسة؛ و(5) ما هو أكثر أهمية من كل ذلك أنهم قد يعمدون، عبر الإصرار على ممارسات ثقافية معينة موروثة من الماضي، إلى مواصلة مزج جملة المكوِّنات الثقافية المحلية (الشيوعية والقومية)، الإقليمية، والكوكبية فترة طويلة من الوقت في المستقبل. فالاستقبال الانتقائي للبضائع الثقافية الأجنبية والخلط العشوائي للأمور (البريكولاج) يبدوان أنهما القاعدة بدلاً من أن يكونا الاستثناءين.

انطلاقاً من هذه الافتراضات، قرر فريق بحثنا أن يتناول عبارة «العَوْلَمة» بقدر استثنائي من الحرص تجنباً لمعاني معينة مثل المجانسة والتنميط أو القَوْلَبة الشاملين. ما لم نكن شهوداً على حالات استعمار ناجحة، فضَّلْنا الكلام عن انفتاح ثقافي، تنافس، تبادل، مجابهة، صراع، وتعاون (عن «الكَرْيَلة» [نسبة إلى الكريول: خلاسيي جزر الهند الغربية] و«الأَقْلَمة ـ الكوكبية» [نسبة إلى إضفاء صفتي العولمة والأقلمة] إن شئت)[23] بدلاً من الاحتلال الثقافي. تلك هي الطريقة التي انشدَّ بها اهتمامي إلى مفهومي المقاومة والمساومة الثقافيتين، خصوصاً إلى نمطيهما السلبي والعفوي[24].

وتبعاً لذلك تم استبدال مفهوم الفراغ الثقافي بمفهومي تبعية الطريق والاحتكاك. تعمدنا إبقاء سؤالنا البحثي بسيطاً: لنفترض للحظة أن **هناك** بضائع

ثقافية كوكبية ولنراقب ما يحصل لها بعد أن تدخل إلى البلاد. كيف تتعرض هذه البضائع للتحول لحظة نقلها؟

لم يكن غرضنا تمجيد الدفاع المحلي عن الذات ضد التأثيرات الكوكبية لأن من شأن مثل هذا الدفاع أن يكون مستنداً إلى بقايا تقاليد ملتبسة، أشكال مريبة من الاهتمامات الأصلية وما إليها، أو حتى إلى نوع من التدخل من جانب طرف خارجي آخر. ينطبق الشيء نفسه على السلبية: من شأنها هي الأخرى أن تشتمل على مقاربات عديدة مختلفة للمقاومة بدءاً بالعزوف الكامل، مروراً بالتأمل اللامبالي، وانتهاءاً بالإقلاع العفوي عن استهلاك بضائع ثقافية معينة.

فيما يخص المجر، أريد أن أؤكد العفوية الجوهرية والطابع الفردي لهذه الخيارات. وفي الوقت الحالي، ليس ثمة ما يدعو إلى الشك بوجود مؤامرة سياسية شاملة قابعة وراء هذه القرارات الشخصية، ولا سيما لأن من شأن المقاومة أن تصدر، بين أشياء أخرى، عن ظروف لاشخصية (خارجية) في العمق ومن الأساس مثل التالية:

- عطالة «المعَوْلِم» السابق (في هذه الحالة، تعني المقاومة عرقلة الدخول الثقافي جزئياً).
- منافسة بين مصدِّري ثقافة خارجيين (في هذه الحالة، يبادر المستورد المحلي إلى المقاومة، غريزياً في الغالب، عبر تفضيل هذا «المموِّن» الثقافي على ذاك).
- رسائل متضاربة صادرة عن الغرب (في هذه الحالة، تعكف الثقافا الكوكبية القادمة على مقاومة بعضها البعض).
- تظاهر وتزييف (في هذه الحالة، قد يتعرض الاستيراد الثقافي للإخفاق الفعلي، بذريعة المقاومة الصفرية).

تحرر من السَّفْيَتَة؟

ليس النمط الغربي من العولمة، في أوروبا الشرقية، إلاَّ وجهاً واحداً (وإن صارخاً) من وجوه انفتاح عام. بادئ ذي بدء تمخضت ثورة 1989 م عن التحرر من السَّفْيَتَة، عن انطفاء جزئي لما عُرف باسم النظام الشيوعي العالمي. ومثل هذا النوع من الخروج على العولمة بدا واعداً بميلاد جديد لسلسلة من الثقافات القومية / العرقية المقموعة والمكبوتة ـ نقيض المجانسة العالمية الشاملة تماماً. فوفقاً للتوقعات المتفائلة للمنشقين المعارضين في 1989 م، كان من شأن انهيار الكتلة الشرقية أن يعني الموت المفاجئ للثقافة السوفييتية بدعاواها الكونية الشمولوية ولكن بواقع كوكبي زائف، بقاء الثقافة الروسية الراقية، وميلاد ثقافة مختلطة ـ وطنية ولكن ليست قومية ـ عرقية) وكوكبية حقاً (ليبرالية، كوزموبوليتية) ـ مؤهلة لاحتضان عناصر مكوِّنة عليا وأخرى دنيا، دون تشعبات الثانية اللاإنسانية.

باختصار وببساطة، كان من شأن الرقابة اللنينية أن تزول، ولكن دون أن يتعرض ليف تولستوي وفيودور دوستويفسكي لأي أذى. كان من شأن بيلا بارتوك، فريدريك شوپان، وفريق الخنافس (البيتلز) أن يتعايشوا سلمياً. وعلى الرغم من احتمال كون العثور على مكتبة (مخزن بيع كتب) محترمة في وارصو، بودابست، أو بوخارست، صعباً، فإن من شأن المكتبات غير المحترمة أن تعرض كتب والت ديزني ذات الألوان الزاهية أو الكتب النخبوية، بدلاً من الإباحيات الفاضحة والتفاهات النازية.

غير أن التحرر من السَّفْيَتَة ما لبث أن أفضى إلى نوع من تطور (أو انحطاط) تابع للحياة الثقافية، بدلاً من أي شكل من أشكال إعادة التنشيط والتفعيل لأية ثقافات عرقية. وتبعية الطريق هذه كانت تعني شيئين على الأقل: إمّا استمرار المؤسسات الثقافية في أداء وظائفها كما في ظل النظام الشيوعي تماماً تقريباً (فالحكومة المجرية ظلت تدعم صناعة السينما بقوة دون فرض أية

رقابة على الأفلام) أو عودة الأنماط ما قبل الشيوعية للثقافة إلى البروز على السطح (ثمة خطط اعتُمِدَت لاستعادة التعليم الديني في المدارس الرسمية). كانت الثقافة الشعبية محكومة بالاستنقاع والركود. على الرغم من أن مبادرات أهلية كانت قد باتت قادرة على الانبثاق دون التعرض لخطر الوَصْم بالتحررية، فإن موارد الدعم الرسمية ما لبثت أن جَفَّتْ، بريق معاداة الشيوعية الواعد بإحياء التراث القومي ما لبث أن تلاشى، والثقافة الشعبية الأصيلة ما لبثت أن تعرضت للهزيمة أمام صورتها التجارية المقلدة.

من المفارقات الباعثة على السخرية أن التقاليد القومية ـ العرقية انتعشت فعلاً ـ تحت رعاية الحكومات الائتلافية «الحمراء ـ البنية» الشيوعية ـ القومية، مثلاً، أو النزعة الشعبوية الجديدة كما هي الحال في المجر ـ في تلك الميادين التي أثبتت فيها عملية التحرر من السَّفْيَتَة قَدْراً ولو جزئياً من النجاح (مثل ميدان الثقافة السياسية). «تعالوا نكتشف جذورنا من جديد في تربة السياسة العرقية!» ـ الشعار الراهن لليمين واليسار الشعبويين في بلدان ما بعد الشيوعية ـ **لم** يتشكل في أحلام الأكثرية الساحقة للمعارضين المنشقين خلال سنوات الثمانينيات حين كان هؤلاء عاكفين على مناشدة التراث الثقافي المشترك لأمم الأوروبيتين الوسطى والشرقية. بقَدْر مثير من السذاجة كان أولئك يتحدثون عن أغانٍ ومقاهٍ شعبية، عن نكات مدينية، عن روايات عظيمة، وعن فن عمارة كنائس القرى[25]. كثيرون منهم كانوا راسخي القناعة بأن الصراع الدائم بين «الشعبويين» (المتمسكين بالتقاليد العرقية) و«فرسان التغرب» لن يلبث أن يزول فور رحيل الجندي السوفييتي الأخير عن المنطقة. أضف إلى ذلك أنهم كانوا يفترضون: (1) ثمة كثرة من لآلئ الثقافة الأصيلة التي لا تزال تنتظر الاكتشاف، و(2) من شأن اللُّقى والاكتشافات أن تُترجم بروح كوزموبوليتية، مُبَرَّأة من لوثة التمييز والفصل القوميين.

هذه الأيام، في أعقاب عقد طويل كان مثقلاً بسلسلة من الإحباطات

المتكررة، يبادر عدد كبير من أولئك المنشقين السابقين الذين كانوا واثقين بجدوى البعث الثقافي للمنطقة، إلى تعليق آمالهم على الاتحاد الأوروبي القادر على الحيلولة دون انتعاش الثقافة القومية التافهة البالية كما على التصدي للأَمْرَكة «الرخيصة». بالنسبة إليهم ثمة نوع من العَوْلَمة المنظمة، أو المصفّاة ذات القاعدة الأوروبية للثقافات يبدو ممكناً كعلاج أخير لِعِلَّة ضياع الجودة من الجهتين كلتيهما.

غادر الجندي السوفييتي الأخير أرض المجر منذ سنوات عديدة، حاملاً معه (جنباً إلى جنب مع جميع مصابيح الثكنات والمهاجع) ليس فقط ألكسندر بوشكين وإيليا ريبين اللذين كانا من الفنانين الروس الذين دَرَجَتْ السياسةُ الثقافية السوفييتية على الاحتفال بهم، بل وكلاً من ميخائيل بولغاكوف وكازيمير ماليفيتش، اللذين كانت علاقتهما بالجهات الرسمية السوفيتية أكثر من ملتبسة وإشكالية[26]. جرى التخلي عن تعليم اللغة الروسية التي تعرضت للسحق تحت وطأة العقلانية الاقتصادية (فروسيا هي إحدى الشريكات التجارية الرئيسية).

في الوقت نفسه، ثمة قَدْر كبير من النزعة السوفييتية نجا من كارثة انهيار الإمبراطورية في البلدان الدائرة في الفلك[27]. لعل أسطع الأمثلة هي تلك التي تقدمها الأحزاب الشيوعية (السابقة) نفسها مع ثقافة سياسية قائمة على أساس عام من عدم الثقة، اللامسؤولية، والعدوان، سياسة ورثها منافسو هذه الأحزاب عنها، حتى في بلدان ذات تاريخ شيوعي إصلاحي طويل مثل المجر. وليست المافيا (تلك المؤسسة التي يُكْثِر المجريون من رَبْطها بروسيا الراهنة دون إدراك حقيقة أنها ذات جذور عميقة في الكيان السياسي الروسي) مسألة غير ذات علاقة على هذا الصعيد.

غير أن المسألة الأشد إثارة هي الكيفية التي أَثَّرَت بها الثقافة السوفييتية على الإجراءات البيروقراطية، على الروتين الصناعي، وعلى السلوك اليومي لدى المجريين. فثقافة التسويف والمماطلة المنعكسة في كلمة واحدة،

سيتشاس (قريباً، ولكن دون أن يحصل على الإطلاق)، التكتم البيزنطي، إحلال الكم البدائي محل النوعية الجيدة، وتطبيق بساطة قاتلة في العديد من الميادين المتدرجة بين التنظيم العسكري والأساسات الخَرَسانية العملاقة لدورات المياه الريفية في القرى ـ ليست هذه جميعاً إلاَّ أمثلة اعتباطية دالة على عملية تثاقف دامت أكثر من أربعة عقود. أضف إلى ذلك أن السوڤييت عادوا إلى وطنهم ولكنهم خَلَّفوا وراءهم عدداً لا يستهان به من الحاجات الاستهلاكية الجماهيرية. وعلى الرغم من أن أهل المجر لا يتناولون **البورسن** (حساء اليخنة) كما لا يرتدون **الغيمناستيوركا**، فإن سيارات اللادا، برادات الساراتوف، ومكانس الراكيتا الكهربائية (أو منافستيها الألمانية الشرقية والتشيكية) لا تزال تعمل ولا تتوقف عن التباهي بالمتانة والرُّخْص ـ مع بقائها، في الوقت نفسه، عديمة الكفاءة بصورة لا تُصَدَّق من حيث تبديد الطاقة ونشر جحيم من التلوث في الهواء[28].

مما لا شك فيه أن القابلية الحديثة لدوام بعض الممارسات الثقافية ذات الطابع السوڤييتي في المجر تعود أيضاً إلى حقيقة أن عقود الحكم الشيوعي الأربعة جاءت بعد أربعة عشر عقداً سابقاً (تبعاً لمرجعية المرء) من إعداد التربة لعملية السَّفْيَتَة. في 1945 م كانت الفودكا جديدة نسبياً في المجر، في حين أن الإدمان على تعاطي الكحول مع الموقف القَدَري من الصحة والمدمر للذات كان قد طغى على الثقافة الشعبية في بلدي خلال القرن التاسع عشر.

أَمْرَكَة؟

من يأتي أولاً، من يمتلك ما يكفي من القوة ويجلب معه أكثر الرسائل ذرائعية وبساطة إلى مواطني أوروبا الشرقية الذين شبعوا وسئموا من التلقين المكشوف، يستطيع أن يفتح العالم الثقافي للمنطقة. لذا فإن معظم المحللين أعلنوا في 1989 م أن الولايات المتحدة (ومن غيرها؟) كانت قد ربحت المباراة الثقافية قبل أن تبدأ. فعبارتا «استعمار الكوكا» و«عقيدة مارلين مونرو»[29] كانتا

قد ابتكرتا، أساساً، لوصف نزعة استهلاكية عابرة للأطلسي في تاريخ ما بعد الحرب للثقافة في أوروبا الغربية؛ ويجري حالياً اعتمادهما عبر الكتلة الشرقية السابقة كلها دون أي تحفظ وبالقدر نفسه من الشحنة الانتقادية.

لا شك أن كَثْرةً من مكوِّنات الثقافة الراقية (مثل الأدب، الأوبرا، العلوم الاجتماعية) اكتسبت موقعاً قوياً بعض الشيء في ظل النظام الشيوعي بفضل دعم الدولة أو، وهذه مفارقة، بسبب اضطهاد الدولة (كما في مثال الكنائس، الفنون المقيَّدة بالرقابة). وعلى هذا الصعيد، قد تنطوي العولمة على نوع من إحلال ثقافة كوكبية بأخرى، ربما هي أكثر كوكبية من السابقة. يمكن القول ببساطة، إحلال موزارت محل فرقة سبايس غيرلز، برونيل محل سبيلبيرغ، شيكسبير محل كتاب سيناريوهات أفلام الصور المتحركة. في الوقت نفسه، تقوم الملامح الصارخة لعولمة الثقافة ذات توجهات البوب الصارخة بإبهار العديد من المراقبين وصرفهم عن رؤية الزيادة السريعة في كمية الثقافة الراقية المستَوْرَدَة من الغرب، والكثير منها من الولايات المتحدة. فهذه البضائع الثقافية المتجسدة في سلسلة من النظريات العلمية، المهارات، الطقوس الروتينية، الإجراءات الحقوقية، وإلخ، مستخدمة على نطاق واسع في سياق «اللَّبْرَلة الشاملة»؛ أي في تصميم الإصلاحات الحكومية فيما بعد النظام الشيوعي، إدارة عمليات الخصخصة، إعادة هيكلة الجامعات، إعادة تشكيل شبكات التواصل في المجتمع. أليست هذه ميادين تنطوي على أهمية ثقافية توازي على الأقل أهمية نَشْر تكنولوجيات الوجبات السريعة؟ غير أن من شأن البضائع الاستهلاكية الكوكبية أن تحمل هي الأخرى أشكالاً «راقية» من الثقافة المحلية والإقليمية. تشكل البقعة المعروفة باسم جزيرة البيبسي في بودابست مثالاً حياً. ومهرجان هذا الصيف للروك التقدمي والموسيقى العالمية قد أصبح اللقاء الأكبر والأوسع لشبيبة أووبا الوسطى[30].

هل تكتفي اللغة الإنجليزية بنشر الثقافة الجماهيرية الأمريكية؟ أعتذر عن

هذا السؤال السخيف، ولكن طرحه ضروري في بلد بات فيه عدد متزايد من دعاة الطهارة الثقافية ميالين إلى نسيان حقيقة أن (1) أية لغة، وإن لم تكن لغتك القومية، هي بضاعة ثقافية عالية الجودة بحد ذاتها؛ (2) اللغة الإنجليزية لا تقتصر على تقديم الشعارات المبتذلة المكتوبة بأخطاء إملائية مرعبة على البلوزات القطنية[31] وَحَسْب، بل وتساعد المجريين على الإحاطة بالعناصر الأَدَق للثقافة الأنجلو ـ سكسونية (التي ليست أمريكية حصراً)، ناهيك عن العناصر غير الإنجلو ـ سكسونية؛ (3) وإذا لم تقم الإنجليزية على أي حال، بنقل أي شيء عدا قواعد لعبة البيزبول أو نص الصرعة الموسيقية الأخيرة في برودواي، فإن ذلك هو الآخر لن يكون مأساة كارثية؛ (4) لا يتعين على التحدي الذي تمثله الإنجليزية أن يفضي بالضرورة إلى «هنغارية مؤنجلزة» وضيعة، بل يستطيع أن يساهم في إنعاش أصيل وخلاق للغة المجرية؛ و(5) مهما يكن، تواجه الإنجليزية صعوبة كبيرة في مواكبة النَّحْو المجري وتراث تعلم الألمانية المنتعش في المنطقة.

تبعاً لدراساتنا الميدانية، اعتمد الاستيراد الثقافي بعضَ الطرق التاريخية، ولم تستطع البضائع الثقافية الأمريكية ـ تجنُّب التنافس مع سلع مختلفة مستوردة من أوروبا الغربية (وشرق آسيا دون أية سوابق تاريخية). وعلى الرغم من الهيمنة الأمريكية الراهنة[32] على صعيد الانتشار الثقافي في العديد من الميادين بدءاً بهوليوود وانتهاءاً بالكتب التعليمية الاقتصادية الأولية، ومن معايير الناتو في التدريب العسكري إلى فنون الكمال الجسماني، فإن من غير الحكمة إغفال التأثيرات «الكوكبية الفرعية» [التأثيرات التي هي دون مستوى كوكب الأرض]؛ أي النسق الألماني ـ النمساوي التقليدي، خصوصاً في المجر، مع التأثير المتنامي باضطراد للاندماج الأوروبي على التطور الثقافي للأوروبيتين الوسطى والشرقية جميعاً. أضف إلى ذلك أن المرء يستطيع، في ظل التدفق المتواصل للرساميل الصناعية اليابانية والجنوب ـ شرق آسيوية مع إقامة شبكات تجارية واسعة من قبل مبادرين صينيين في المنطقة، أن يتوقع، دون تردد، سلسلة من

العواقب الثقافية (ناهيك عن النمط البديل من العولمة الثقافية)[33] التي يمكنها أن تتدرج من التغيير الجذري في أخلاقيات العمل إلى تناول السمك النيء [غير المطبوخ] وترديد الألحان الموسيقية في حجرات الكارا أوكي.

لدى النظر إليها من المَرْصَد المجري تبدو أوروبا الوسطى بؤرة دوّامة ثقافية بحد ذاتها. فمع انهيار الشيوعية تحول وَطَني إلى مركز للهجرة البينية العابرة لأرجاء المنطقة المختلفة، بما في ذلك وجود العمال الضيوف، اللاجئين، والمجرمين، ولكن أيضاً مع عدد كبير من المبادرين والمدراء من النمسا وألمانيا ـ ناهيك عن مواطني هذين البلدين الذين يكثّفون من الاستثمار في قطاع العقارات المجري[34]. ما زالت اللغة الألمانية قادرة على منافسة اللغة الإنجليزية بين صفوف المجريين. فمنذ سنة 1989 م أبدت شركة سبرنغر وبيرتلسمان، معهد غوتة، المؤسسات السياسية الألمانية الكبرى (إيبرت، آدنياور، ناومان، زايدل)، إلخ... نشاطاً مفرطاً في ميادين وسائل الإعلام، التبادل الثقافي، والاستشارة السياسية[35].

أضف إلى ذلك أن الأزمة اليوغسلافية تَرَكَتْ مؤخراً آثار تغيير ثقافي ملحوظ في المنطقة عن طريق الكشف عن فقدان التضامن بين الجيران، الحفز على الفساد والرشوة لمراوغة الخطر، والتخفيف من ضراوة الحروب الثقافية في البلدان الأخرى ـ وهو أثر غير متوقع جدير بالترحيب. ثمة روابط تاريخية ما لبثت أن عادت إلى الظهور مرتدية أثواباً بالغة الجدة؛ فالحنين الماضوي إلى أيام الحكم القيصري والملكي Kaiser lich und Königlich / K.u.K مثلاً جاء ممزوجاً بالارتياب من نمسا متزايدة العداء تخشى «غزواً شرقياً» وتوسعاً مجرياً مصغراً[36] (نوعاً من «التمجير») في البلدان المجاورة ذات الجاليات المجرية الكبيرة. أمّا فيما يخص الآثار الثقافية الآتية من آسيا فإن مداها يتدرج من المدينة الصينية (التشاياناتاون Chinatown) الأكبر في أوروبا الوسطى الموجودة في بودابست بسوقها ذات التنانين الأربعة إلى معمل سوزوكي العملاق القريب من

الدانوب وصولاً إلى المدير الكوري الجنوبي في بلدة هامشية يعاقب الموظفين بالضرب إذا لم يعملوا بما يكفي من السرعة[37].

إيجازاً لما سبق يمكن القول إن المرء يستطيع في بَحَر اليوم أن يلاحظ خليطاً فريداً من المجانسة الثقافية الشاملة للعالم، جملة من الملامح القومية / الإقليمية / القارية المنبعثة من جديد، واردات ثقافية مجلوبة من الشرق الأقصى، بقايا قوية من ثقافة شبه كوكبية أو كوكبية زائفة، وتعرض طائفة من أنماط الثقافة الكوكبية الراقية للضعف (أو إعادة الهيكلة؟): يا له من كرنڤال ثقافات غير مسبوق في بلد صغير وخلال فترة زمنية بالغة القصر! أَلَنْ يكون إطلاق اسم «الأَمْرَكَة» تبسيطاً شديد الاستعجال؟

الاستمرارية مع التسريع

لا تشكل سنة 1989 م في الحقيقة محطة أو انقطاعاً في مسيرة التغير الحاصل لهذا الخليط الثقافي. تبدو هذه السنة حداً فاصلاً بحدة بين «عَصْر العَوْلمة» الراهن وحقبة شيوعية «غير كوكبية» سابقة في المنطقة، لأن زوال الإمبراطورية السوڤييتية تزامن مع الثورة المعلوماتية، طفرة في عملية الاندماج الأوروبي، وأعمال مع اتصالات عامة شاملة للعالم، جعلت اللقاءات والحوارات الثقافية أسهل بكثير. جاء الانفتاح على الثقافة الدولية مذهلاً وصاعقاً حقاً بالنسبة إلى عدد غير قليل من بلدان الكتلة الشرقية السابقة مثل ألمانيا الشرقية ورومانيا، ولم يبق أي بلد أو مجال ثقافي في المنطقة لم يُحْدث فيه انهيارُ النظام الشيوعي تعجيلاً كبيراً وملحوظاً لمسيرة التغيير الثقافية.

قام النظام السوڤييتي، بعيوبه الاقتصادية وضوابطه الإيديولوجية، بخلق الشروط المسبقة اللازمة لمثل هذا التعجيل في الثقافة الجماهيرية خصوصاً. إذا كان يتعين عليك أن تقف في الصف في موسكو أو صوفيا ليل نهار لشراء الجينز الأزرق في الثمانينيات؛ إذا لم تكن قادراً على أن تحلم بركوب هارلي داڤيدسون في حياتك كلها، وتعرض فلم الركوب السهل Easy Rider للحظر من

قبل مسؤولي الرقابة الشيوعيين ـ فإن سروالاً بسيطاً يغدو سلعة ثقافية قوية بحد ذاتها، رمزاً مجسِّداً لمطالبة شديدة الإلحاح بالحرية لا علاقة لها بتصاميم استراتيجيي تسويق البضاعة الغربيين.

قد تصلح المجر هنا كمثال مضاد. ففي إطار نمط المساومة التوفيقية من نمط «عِشْ ودَعْ غيرك يعيش» لما بعد 1956 م، قدم النظام بقيادة يانوس كادار سلسلة من التنازلات في سبيل خَطْب وُدّ المواطنين عبر عملية غَرْبَنَة تدريجية خاضعة للتحكم. جاءت هذه العملية مشتملة على التخفيف من القيود على السفر (مثل قانون «الخمسين دولار كل ثلاث سنوات»)، وتشجيع استقبال السياح؛ إصلاح التجارة الخارجية واستيراد أعداد متنامية من السلع الاستهلاكية الغربية («طوابير الموار» أماسي الأعياد الرسمية، بيع زجاجة الكوكاكولا الأولى في السبعينيات، افتتاح مطعم الماكدونالد الأول في الثمانينيات)[41]؛ السماح لبعض الكُتَّاب، الباحثين، الممثلين، مخرجي الأفلام، فرق الروك من أشباه الموالين باكتساب الشعبية في المجر وبالقيام بدور الوساطة بين الشرق والغرب؛ توسيع التعليم باللغة الإنجليزية في المدارس، نشر الأدب الغربي الحديث، وتعليم العلوم الاجتماعية «البورجوازية» في الجامعات؛ التوقف عن تعطيل بث إذاعة أوروبا الحرة في الستينيات؛ التآخي مع المهاجرين (إقامة صندوق شوروش في الثمانينيات)، مع الڤاتيكان، مع إسرائيل، مع فرسان **السياسة الشرقية**، مع شيوعيي الشيوعية الأوروبية، وإلخ؛ الاقتراض بكثافة من الغرب، الالتحاق بركب صندوق النقد والبنك الدوليين، وإطلاق مشروعات مشتركة مع شركات غربية كبيرة (تدشين أول فرع لسيتي بانك في الثمانينيات)؛ خوض تجارب اقتصادية كلية متكررة على صعيد إلغاء قيود التخطيط المركزي؛ تشجيع نشاطات الأعمال غير الرسمية، اعتماد استراتيجيات مناسبة للأفراد، للاستهلاك الخاص، والبرجزة؛ استبدال الإرهاب والتعبئة بالمساومة والتعاقدات الاجتماعية الخفية؛ إبداء قَدْر نسبي من التسامح مع التحركات العرضية

للمعارضين المنشقين، والتحرك الأولي، عموماً، باتجاه المجتمع المدني ـ يستطيع المرء أن يواصل تعداد فضائل «شيوعية الغولاش» التي أَنْقَذَت عدداً كبيراً من المجريين من الصدمة الثقافية لمواجهة الرأسمالية الكوكبية خلال العقد الماضي.

مجانسة؟

حتى في الحالات الواضحة ظاهرياً مثل حالة مطاعم الماكدونالد، الكوكا ـ كولا، وموسيقى البوب، من الصعب الحديث عن أنماط تقليد ونقل موحدة. إذا كانت مطاعم الوجبات السريعة بأكثريتها الساحقة أماكن لقاء للطبقة الوسطى، وإذا كان مشروب الكوكا ـ كولا يتم مَزْجه في الغالب **بالبالينكا** ذات النوعية الرديئة في الحالات الوضيعة، ويمكن جمع إيقاعات آلات الطرق (الراب) بالنصوص الساخرة الرفيعة انسجاماً مع مزاج تقيد الكاباريه النمساوي ـ المجري، فإن من الصعب، إذن، القول بأن أي نَشْر مكثّف لهذه المنتجات يحمل معه رسائل ثقافية نموذجية أو معيارية. بعبارة أخرى، إذا كُنْتَ تستهلك الوجبة السريعة ببطء، تمدد المشروبات القوية بالكوكا ـ كولا، وتروي نكاتاً ماكرة لدى عَزْفِك للألحان العنيفة، فإن العولمة ستكون، إذن، ممزَّقة، أو حتى ستنقلب إلى عكسها: **بيبسي** دون **شعور البيبسي**.

ليست الأداة (أو ليست بالضرورة) هي الرسالة، خصوصاً إذا كانت الرسالة نفسها غامضة، لأن الغرب لا يكتفي بتقديم نفسه وحسب بل ويقدّم نَقْدَه الخاص أيضاً إلى أوروبا الشرقية: يقدم شرائع السوق الحرة في مواجهة النزعة البيئية، حرية الكلام مقابل الخطاب السياسي القويم، أصنام هوليوود المعبودة من الذكور مقابل القيم النسوية، حماية الصحة في مواجهة الطعام الخفيف، إلخ. يستلم مواطنو أوروبا الشرقية رُزَماً ثقافية ملأى ببضائع يتعذر التوفيق بينها[47] مثل هذه، قبل أن تتاح لهم فرصة مواجهتها أو خَلْطها ببضائعهم هم. ومن الغريب حقاً أن الأخيرة قد تكون أكثر الأحيان غير قابلة للمواءمة مع

نوعي الثقافة المستوردة كليهما. فمبدأ عدم التدخل والتدخل الفعال الكلاسيكيان يكونان، بالنسبة إلى أكثرية المجربين، مثلاً، متساويين من حيث عدم جدارتهما بالقبول في عدد من الأحيان. حين يكون الأمر متعلقاً بـ «مسألة الغجر»، أشك أن يُقْدِم مواطنو بلدي على مطالبة الحكومة بالحياد أو التمييز الإيجابي، مكتفين بالإلحاح على القمع الخالص ـ دليل تبعية الطريق مرة أخرى.

يبقى مشروع اللَّبْرَلَة الشاملة الثوري متناقضاً فريداً. لا يكون المرء بحاجة لمعاينة مبالغات ثقافتي دافوس ونادي الكلية (عبر تصور الحوار بين المهووس بجمع المال ومصمم حصص دوغمائي، مثلاً) ليرى احتمالات الصدام بين الأشكال المتزامنة لكل من اعتماد آلية السوق / إلغاء القيود من جهة وإشاعة الديموقراطية من الجهة المقابلة. لعل أقرب الأمثلة هو، بالطبع، الخطة الثقافية نفسها: هل يجب ربط التمويل العام للبرامج الثقافية بنجاح هذه البرامج في السوق؟ هل تستطيع الحكومات أن تتمتع بميول تفضيلية ثقافية؟ ما الذي يحول دون خصخصة المسرح القومي؟ ما الداعي إلى دعم المتاحف؟

في غضون العقد الماضي، ظلت الحكومات في المجر تتأرجح بين النموذج الفرنسي / النمساوي «التوزيعي» من جهة، والنموذج الهولندي ـ الأمريكي الأكثر «توجهاً إلى السوق» من الجهة الثانية في الإجابة عن هذه الأسئلة. أخيراً تعرض النموذج الثاني لهزيمة مهينة[42]. فَضَبْط وسائل الإعلام الجماهيرية، الذي طالما كان ميدان حرب ثقافية دائمة في المجر خلال السنوات الأخيرة، يطرح أسئلة مشابهة: هل يتعين على القنوات التلفزيونية الخاصة أن تبث برامج عامة؟ هل تستطيع القنوات العامة أن تبث الإعلانات التجارية؟ ما الذي يحول دون خصخصة وكالة الصحافة القومية؟ هل تنطوي الانتخابات البرلمانية على تخويل الفائزين بالهيمنة على وسائل الإعلام العامة؟ هل تتمتع الحكومة بحق إصدار صحيفة خاصة؟

في محاولة منهم لحل هذه المشكلات ما لبث المشرِّعون المجريون، الذين كانوا أوائل التسعينيات يناقشون التشريعات الشبيهة بتلك الناظمة للبي. بي. سي.، أن وصلوا إلى عالم النموذج النمساوي ـ الإيطالي القائم على قدْر أكبر من التدخل[43]. وكذلك فإن دعاة إصلاح الجامعة في المجر واجهوا معضلة «المصلحة العامة أم المصلحة الخاصة؟»: ما زالوا عاكفين على البحث عن أجوبة للسؤال نفسه المتمثل بما إذا كانت الفروق بين فُرَص المواطنين التي تمكِّنهم من الحصول على الخدمات الثقافية، المعلوماتية، أو التعليمية يجب اختزالها عن طريق التدخل العام أم لا (وإذا كان الجواب نعم، فإلى أي مدى، وبأيّ أسلوب، إلخ). رغم جميع الجهود المبذولة في سبيل إقحام قوانين السوق جزئياً على التعليم الجامعي والعالي، فإن محاولات الإصلاح مهووسة الآن بالنموذج الألماني[44]. وبالمناسبة فإن مَيَلان كفَّة التفضيل نحو الخطط الدولية للتنظيم في الحالات الثلاث يسلّط الضوء على استمرار بقاء جملة من الثقافات القديمة (الشيوعية وما قبل الشيوعية في السياسة العامة، كما على هيمنة الأنماط الأوروبية على نظيرتها الأنجلو ـ أمريكية. من المؤسف أن فكرة الحُكْم القوي تتعزز في مجالات أخرى من التخطيط العام، مثل إصلاح الضمان والإسكان، ناهيك عن قطاع المصارف وأسواق رأس المال، حيث باتت الولايات المتحدة، مؤخراً، تمارس نفوذاً أكبر (بل وطاغياً أحياناً)[45].

تكون الأنماط الثقافية المتنافسة في الغرب منطوية على إغواءات متنافسة بالنسبة إلى أوروبا الشرقية. إذا كان هذا ما يتعين على المرء أن يعنيه بالمجانسة، فسوف أجد نفسي ميالاً أكثر إلى الكلام عن ملابسات تصدير واستيراد[46]. وقد تتعرض هذه الملابسات بدورها إلى مزيد من التحوير والتحريف محلياً. ثمة مثال جيد تقدمة جمعية الإيمان، كنيسة كاريزمية بروتستانتية ـ جديدة، والمؤسسة الدينية الجديدة الأكبر والأغنى في المجر. إنها تبشر بروح ابتكارية صارمة مشبعة بالمبادرة وبقيم العائلة المحافظة، تدعو إلى

آراء موالية لليهودية، تكاد أن تكون مؤيدة للسامية، تفاضل في سبيل الفصل بين الكنيسة والدولة، تدعم الحزب الليبرالي التقدمي والعَلْماني، حزب الديموقراطيين الأحرار، وتحتفظ في الوقت نفسه بهيكلية ثيوقراطية تراتبية صارمة قريبة مما كانت تعرف باسم «عبادة الشخصية» في ظل النظام الشيوعي

عودة إلى أطروحة الاستعمار

إذا قام المرء بوصف انفتاح الديموقراطيات الجديدة في أوروبا الشرقية على أنه استسلام روحي، فإن من شأن قاموسه، حسب جميع الاحتمالات، أن يتضمن تعابير متناغمة مع حرب ثقافية Kulturkampf دولية، عامرة بثلة من الأبطال القوميين وحشد من الخونة الكوزموبوليتيين، بجيش من الغزاة وجماعات من المتعاونين العملاء، بسلسلة من خطط الحرب ومجموة من خطط «الحلول النهائية». وفي إطار مثل هذا الخطاب، من شأن العَوْلَمة الثقافية أن تعني الاحتلال، التدمير، والاستئصال، جنباً إلى جنب مع غَرْس أشتال ثقافية غريبة في أرض الوطن التي تحوَّلت إلى صحراء مهجورة.

غير أنني، حين أقوم باستعراض تاريخ المجر الثقافي عبر العقد الماضي، أجدني عاجزاً عن ذكر مثال استئصال مهم واحد، في حين يوجد عدد متزايد من التجليات والمظاهر الواضحة لظاهرتي التعايش والتوافق الثقافيتين. حتى في عالم الماكدونالد، أكثر أمثلة أطروحة الاستعمار إثارة للضجيج، حيث تكون الثقافات الوافدة مدعومة بالشركات العملاقة، فإن من شأن عطالة الثقافات المحلية أن تكون شديدة الوطأة (وقوة السكان الشرائية بالغة الضآلة) بما يفضي عادة إلى تباطؤ انتشار السلع المستوردة بعد فترة وجيزة من التسارع غير القابل للتصديق.

تعين على سندويشة الهامبرغر، مثلاً، في أعقاب انتصاراتها الأولى أن تعقد صلحاً مع نقانق الخنزير التقليدية و**الفاشيرتات** Faschiertes النمساوية -

المجرية، وظلت عاجزة عن كَسْر احتكار الريسن (الكستليتا) القيينية (**الفاينر شنيتزل** Weiner Schintzel) لمائدة غداء الأحد المجرية. حدث الشيء نفسه بالنسبة إلى البيزا، على الرغم من أن وضعه الراهن في مواجهة اللانغوسن langos (وهو نوع من الكعك المقلي) يبدو أفضل قليلاً في المناطق الحضرية.

ومع البقاء في المطبخ فإننا نلاحظ أننا ما زلنا نفتقر إلى سلسلة مطاعم الوجبات السريعة المتخصصة بالغولاسن، بهذا الطبق القومي المجري. أضف إلى ذلك أن الرجال والنساء (!) في المجر مازالوا يدخنون لفائف تبغ قوية لأن هذه هي التي أدمنوها في ظل النظام القديم، رغم أن شركات التبغ الأمريكية المحتكرة للسوق المجرية تبيع أنواعاً أكثر جودة أيضاً[47]. لم تستطع القهوة الخالية من الكافئين أن تطرد الإسبرسّو القوي (المستورد من إيطاليا) من موائد فطور المجريين. وكذلك فإن الكورنفليكس والمُوَسْلي، الكعكات المقلية والباغلات، لم تتمكن بعد من تحقيق أي اختراق ملحوظ. ينطبق الشيء نفسه على أكثرية الأزياء الصحية التي لا تزال، على ما يبدو، امتيازاً (أو تَرَفاً) يخص النُّخْبة. وبالتالي فإن العولمة الثقافية تنطوي على سلسلة من المساومات الشاملة لنوع من التقطيع أو العزل بدلاً من الانتشار العام، ناهيك عن الاحتلال.

حتى لدى نجاح الثقافة الوافدة في احتلال موقع مهيمن في ميادين معينة، فإن من شأن ذلك أن يكون نتاج مصادفة سعيدة / غير سعيدة. يشكل الهاتف الخليوي مثالاً جيداً على هذا الصعيد. إذا كانت القيمة «الغربية» المتمثلة بسرعة قابلية الوصول متوافقة مع لفظية الثقافات «الشرقية» والموروث الشيوعي المتمثل بتخلف مخطط ومدروس لشبكات الاتصالات (وهو عنصر حاسم من عناصر الثقافة السوفييتية) ومع الشوفينية التكنولوجية المتطرّفة للرجال في هذه المنطقة، فإننا نستطيع في مَجَر اليوم أن نرى نصف الذكور الماشين في الشارع حاملين هواتف خليوية[48]. أجدُني متسائلاً حقاً عما إذا كنا نستطيع وَصْفَ سلسلة كاملة من المصادفات الثقافية بعبارة «العولمة» حين تساهم الموسيقى التكنولوجية،

مثلاً، في إعادة نفخ الروح في أغاني شعبية زائفة معروفة باسم «روك الزفاف» في وطني (ذلك الذي يستطيع المرء أن يراه كل يوم جمعة متجسداً في الطبعة المجرية من البرنامج الاستعراضي التلفزيوني الألماني / النمساوي المعروف باسم **موزيكانتنستادل**) أو حين تبادر النزعة الصوفية ـ الغيبية الجديدة، المحمولة عبر النواقل الغربية، ذات النمط المنتمي إلى العصر الجديد، إلى الالتحاق بركب السِّحْر والشَّعْوَذَة الأوروبيين الشرقيين، حيث لا يشكل التأثير «الكوكبي» إلاَّ حافزاً أو شريكاً[49].

كما قِيل من قبل، تكرّر إغواء الثقافات الخارجية واجتذابها إلى البلدان الشيوعية السابقة بفعل الطلب غير المُشْبَع، ولم يتم فَرْضُها عنوة على «السكان الأصليين الأبرياء» كما يحلو لفرسان أطروحة الاستعمار الأذكياء أن يؤكدوا. وأكثر الأمثلة وضوحاً هو، بالطبع، مثال ثورة 1989 م بالذات. ما زلتُ أذكر مدى كثرة تكرّر السؤال الساخر «لماذا لا يريد أحد أن يبادر أخيراً إلى استعمارنا؟» خلال السنوات الأخيرة من النظام الشيوعي[50]. كان السؤال يعكس دعوة متطرفة القوة إلى مضاعفة استيراد أي شيء يحمل عنواناً غريباً، بدءاً بالانتخابات الحرة وانتهاءاً بحدائق الأطفال الخاصة والأنماط الدارجة الحديثة للأحذية[51]. أمّا الالتحاق بركب الناتو والاتحاد الأوروبي فليس إلاَّ خطوة رمزية ختامية لـ «التقارب الأحادي»، أو لـ «لاستعمار المرحَّب به»، إذا جاز لي أن أصوغ عبارة مؤلفة من كلمتين متناقضتين.

ما الداعي لاقتراف خطأ إحلال الترحيب أو الدعوة محل الاستسلام؟ لماذا لا يتم الاكتفاء، ببساطة، بتفسير العَوْلَمة على أنها عملية تدفق هائلة لفيض من البضائع الثقافية الأجنبية المتعايشة، بطريقة أو بأخرى، مع المنتجات المحلية لهذا البلد أو ذاك؟ من الطبيعي أن من شأن أي تساكن أن يتمخض عن تنافس وصراع عنيفين (وصولاً إلى سيطرة، ناهيك عن هيمنة، أحد الطرفين)[52] أو (تحقيقاً لجُرْعَةٍ كبيرة من التعاون والتكيف المتبادل) في حال

الزواج؛ غير أن ما يدعو للأسف هو أن احتمال قيام أحد الطرفيم بقتل الآخر والإجهاز عليه ليس قوياً.

تتكشف الغنائيات الاستعراضية الخفيفة في هنغاريا عن خليط مثير (كوكتيل) يجمع بين عنصري التنافس والتعاون. في الوقت الراهن يستطيع الجمهور أن يختار بين قائمة طويلة ومتنوعة من المسلسلات الخفيفة المبثوثة عبر القنوات العامة والخاصة: المستوردة منها والمحلية، الأمريكية منها والبرازيلية والألمانية، الريفية منها والمدينية، الحديثة جداً والعائدة إلى النظام القديم. في العمق تنتمي جميعاً إلى جذور أمريكية، ولكن تعايشها المطول ما لبث أن تمخض عن مستوى رفيع من التداخل الثقافي (تم إطلاق المسلسل الإذاعي الخفيف الأول، **عائلة سابو**، أواخر الخمسينيات وبلغ عدد حلقاته المبثوثة في الهواء حتى اللحظة أكثر من ألفين؛ أمّا المسلسل الغنائي التلفزيوني الخفيف التشيكي الأكثر شعبية، **مستشفى عند أطراف المدينة**، فقد أُذيعت في المجر في عقد السبعينيات). في أحيان غير نادرة يتم إضفاء الصفة المحلية في الاستهلاك بالذات: فقبل سنتين من الآن بدأ المواطنون العاديون المولعون بإحدى المسلسلات البرازيلية في المجر بجمع المال لإجراء عملية جراحية لعين الشخصية الرئيسية أيزميرالدا التي كانت ستصاب بالعمى في نهاية القصة. قام الجمهور بإضفاء الصفة «الطبيعية» على الممثلة الأمريكية اللاتينية إلى درجة نسوا معها الفرق بين الخيال والواقع. هل نحن، إذن، أمام قمة العولمة الثقافية أم العكس تماماً؟

مهما يكن، لماذا لا يبادر أولئك الذين يفضلون الكلام عن استعمار تقف الولايات المتحدة وراءه إلى الكشف عن الحالات الملموسة لأشكال إخفاق الاحتلال؟ ثمة بنود مقبولة، على نطاق واسع، على قائمة مواد التصدير الثقافي المحتملة من الولايات المتحدة التي لا يستطيع المرء حَسَنْ النية أن يعتبرها ضارّة، خصوصاً في طبعاتها المثالية. من شأن كل من الانضباط التعاقدي،

روح الجماعة، الحماس الأهلي، التفكير الموضوعي، الإحسان، احترام الخصوصيات[53]: أن يبهر السكان الأصليين كعنصر خَيْر إذا لم يتعرض استقباله لمقاومة موروثة في المنطقة وإذا توفرت جماعة طليعية قوية لتباشر عملية الاقتباس الثقافي[54]. أم هل أن استقبال هذه البضائع الثقافية المتطورة يبقى بطيئاً، بالضرورة، مما يجعل حتى المال والسلطة عاجزين في الحقيقة عن تسريع عملية المثاقفة؟

ثمة، على أية حال، سلع أسهل على الاستيراد، حتى حين تكون تكاليف التبادل باهظة بعض الشيء. هل سيقوم المجريون، إذا استعملنا المثال الدارج، بالتحول من كُرَة القدم المفضلة لديهم إلى كرة القدم الأمريكية أو البيزبول إذا ما تم توظيف مبالغ طائلة لصالح الأخيرة؟ قد يفعلون. فشعبية سباق سيارات فورميولا واحد، مثلاً، طارت إلى السماء في عقد التسعينيات، بعد شق ممر قريب من بودابست. ومما يثير الاهتمام تبدو قصة نجاح كُرة السلة الأخيرة في المجر (لدى شبيبة الطبقة الوسطى) مرتبطة، في المقام الأول، ببرنامج الرياضة الأوروبية(!)، قناة فضائية دائبة على بث مباريات الفريق القومي [الأمريكي] لكرة السلة بصورة منتظمة[55].

ثمة في الحقيقة قصة «أَمْرَكة» ناجحة ما زالت مُنْتَظَرة: تشير أكثرية المسوح السوسيولوجية إلى عدم حدوث تغيير ذي شأن نحو الأفضل خلال السنوات العشر الأخيرة في المستويات العالية من الفساد، الرشوة، الأنانية، الغرور، النزعة القومية العرقية، والنزعة التشاؤمية التي تطبع المواطنين المجريين[56]. غير أن كلاً من أولئك الذين جرى استخدامهم من قبل إحدى الشركات متعددة الجنسية ملزم سلفاً بعَقْد عمل صارم، غير مسموح له بالتطفل على عقود أجور زملائه، لا يستطيع استخدام هاتف المكتب للاتصال بالأقارب في بوينس آيرس، قد يضطر مراعاة قواعد التنوع، ومحشور في إطار هوية مشتركة متفائلة دونما طلب فعلي من جانبه.

التهجين

في ضوء الملاحظات السابقة، دعونا نضع مفهوم العولمة جانباً لبعض الوقت لاختبار مفهوم التهجين (أو الأقلمة الكوكبية أو اكتساب الصفة الكريولية). غير أن هذين التعبيريين يشيان بأن الحالات المركَّبة لا تشتمل إلاَّ على زوجين اثنين فقط من المكونات لكل منها، في حين أن للكثير من المنتجات الثقافية لما بعد 1989 م في أوروبا الشرقية أكثر من مكوّن واحد ذي تأثيرات متشعبة خاصة واستثنائية على كل من الساحتين الخارجية والداخلية على حد سواء[57].

كما سبق لنا أن رأينا ليست الثقافة الوافدة أمريكية خالصة كما أن نظيرتها المحلية الأصلية ليست «قومية» حصراً. فالكثير من التعديلات الدستورية التي اعتُمدت بعد الثورة في الجمهورية المجرية مستوردة، مثلاً، من ألمانيا[58]، في حين يحذو قانون التجارة والأعمال حذو المعايير الأمريكية بصورة متزايدة، أمّا الإنجازات أو المكاسب الجماعية للاتحاد الأوروبي (التي هي خَلْطة ثقافية أيضاً) فيتم تناولها مباشرة في أثناء مباحثات الدخول، في حين تكون سائر أجزاء المنظومة الحقوقية مثقلة بالعديد من المساومات والحلول التوفيقية الكبرى فيما بين القوى السياسية المختلفة، بما فيها تلك التي تمت مع الشيوعيين في مباحثات الطاولة المستديرة سنة 1989 م. أو، إذا أخذنا مثالاً آخر، كيف يمكن للمرء أن يفهم الميول الثقافية المفضَّلة لدى مؤسسة شوروس، المنظمة الإنسانية ـ الخيرية الأكبر في المجر، دون أخذ الهويات المتعددة لرئيسها (الذي هو يهودي مجري أولاً، أحد تلاميذ كارل بوبر ثانياً، أحد عمالقة الوول ستريت ثالثاً، أحد منتقدي النظام الرأسمالي الحديثين رابعاً) والبنية الداخلية للنُّخْبة السياسية الجديدة المنعكسة على مجالس المؤسسة المختلفة، بعين الاعتبار؟[59].

تبقى عبارة التهجين عبارة جوفاء إذا لم نقم بتحديد نِسَب مكوِّنات الخليط

الثقافي مع سرعة عملية الخلط ونوعيتها. أمّا إذا فعلنا ـ أي إذا وَضَعْنا الحالات المركَّبة في تسلسل متدرج من الاستبدال الكامل لبضاعة ثقافية محلية معينة بأُخرى أجنبية، إلى الرفض الكامل ـ فإننا عندئذ قد نهتدي إلى عدد غير قليل من الأمثلة التي تحتل أماكن أقرب إلى الطرف الأول منها إلى الطرف الثاني. كثرة من شروط الناتو حول أشكال التراتب الداخلي، مبادئ الحرب، لغة القيادة، أو حتى تصميم زي الجيش المجري تشكل أمثلة ساطعة للتنميط المعَزَّز. لعل ثقافة المصارف والخدمات المالية الأخرى هي الحالة النموذجية لأحدث أمثلة النجاح في المجانسة[60].

أضف إلى ذلك أن الاتحاد الأوروبي قد بدأ من الآن يُغْرق المجر بمطالبه التشريعية التي تكاد تبلغ ألفاً من الصفحات. وأنا هنا لا أريد التوقف عند قيام الاتحاد سلفاً بمجانسة قطاعات كبيرة من ممارسات الأعمال، التشريعات الاجتماعية، أو أشكال حماية البيئة في البلدان الأعضاء عبر المساس بعدد من المحرَّمات الثقافية العريقة الراسخة منذ زمن طويل مثل الانعزالية البريطانية، الحضارة الريفية الفرنسية؛ أو انعدام الادخارات في النمسا، إذا أردنا إيراد مثال أكثر ابتذالاً. دعوني فقط أُشِرْ إلى مثال اليورو، الذي سيقوم ليس فقط بتصفية كلمات مثل المارك، الليرة، الكرونا، (والفورِنْت) وبجعل جميع الأمثال والنكات المتضمنة لهذه الكلمات تغرق في بحر النسيان، بل وسوف يبرز على السطح بوصفه التجربة الجمالية الأكثر تكرراً بالنسبة إلى مئات ملايين البشر حين يفتحون حافظات نقودهم وينظرون إلى القطع النقدية الموجودة فيها (التي هي مثيرة للرعب، بالمناسبة).

مهما يكن، حتى أمثلة التنميط المكثَّف هذه لا تشهد على وجود عَوْلمة ثقافية إلاَّ إذا جاء التأثير الثقافي الخارجي القوي ذا طابع عالمي شامل. في هذه الأثناء، يقيم الاتحاد الأوروبي مشروعية على حماية الدول الأعضاء من موجات

العَوْلَمة من ناحية وعلى تمكين هذه الدول من امتطاء تلك الموجات من الجهة الأخرى[61].

تظاهر وتزييف؟

ثمة معيار آخر يجري التغاضي عنه بسهولة ألا وهو أن المجانسة يجب أن تفعل فعلها. فإجبار كل طفل في أوروبا الشرقية على تعلم الأحرف الهجائية الروسية أثبت أنه كان اختباراً تربوياً كارثياً. ينطبق الشيء ذاته على تعليم تاريخ الحزب الشيوعي السوفييتي، والنشيد الوطني للاتحاد السوفييتي، وإلخ. كان لقبول الثقافات الأجنبية رسمياً ورفضها شعبياً (مثال الفن السوفييتي الرسمي) ولرفض مثل هذه الثقافات رسمياً وتبنيها شعبياً (مثال أنماط الحياة الغربية)، في المجر، تاريخ طويل في ظل النظام الشيوعي. وبالتالي فلا غرابة أن يكون أحد المفاهيم الدارجة في بلدي اليوم متمثلاً بـ «الرأسمالية المزيَّفة»[62]، التي تغطي سلسلة طويلة من المظاهر والادعاءات الثقافية (أي الاستقبال السطحي، الجزئي، التلفيقي للحضارة [الحضارات] الرأسمالية). ففريق بحثنا لم يستطع إلاَّ أن يلتحق بركب هذه الطَّفْرة القومية من السُّخْرية الذاتية دون التخلي عن الحرص على تجنُّب مبالغاتها «الاستشراقية»، النابعة من عُقَد النقص والدونية في مواجهة «الغرب»، تحاشياً لأشكال سوء الفهم يجب القول إن التظاهر ليس مكافئاً للخداع والتحايل: من الممكن أن تتم ممارستهن من منطلق خليط من تضليل الذات مع اندفاع ساذج إلى التقليد. وكلاهما يضمن توافر النية الحسنة.

فعلى الرغم من أنك قد تلعب الكرة الطائرة [التنس] في ملابس بيضاء كالثلج، فإن من الأفضل لك أن تعلم أنك لم تصبح مالكاً تماماً لثقافة اللعبة وآدابها إذا بصقت على الأرض وصرخت بأعلى صوتك حين جاءتك الكرة. بالمثل، إذا كنت دائباً على خلط العبارات المالية الإنجليزية باللغة المجرية مع بقائك بحاجة إلى مترجم في غداء العمل، حيث تصل إلى الموعد وأنت سكران، فإن من شأن وَصْفك لسلوكك على أنه «تظاهر» أن يكون قاصراً عن

قول الحقيقة. ينطبق الشيء نفسه على أعضاء النخبة السياسية الجديدة في طول أوروبا الشرقية وعَرْضِها أولئك الذين يستخدمون التكنولوجيات الأكثر تقدماً لإدارة الحملات وهم جيدو الإحاطة بخطاب حقوق الإنسان وسيادة القانون، إلاّ أنهم لا يترددون، حين يكونون في السلطة، إزاء توظيف السلطات الضريبية والأجهزة الاستخباراتية لزرع الخوف في قلوب قادة المعارضة، إزاء إساءة استعمال الأموال العامة، إزاء تسويغ الاتصالات بالجرمين، وإزاء التشدد في تعنيف الأزواج وضرب الأولاد ضرباً مبرحاً، بعد العودة من الكنيسة.

للنوعية أهميتها. لو حسبنا عدد مباريات الكرة الطائرة وولائم غداء العمل أو قسنا، معتمدين مؤشرات أكثر جدية، الحَجْمَ الاسْمي للملكية الخاصة أو عدد القوانين التي أقرها البرلمان، لوجدنا المجر بالتأكيد مثالاً نموذجياً للعولمة الثقافية ذات الطابع الغربي بالمقارنة مع العديد من دول أوروبا الشرقية ربما يمكِّن مؤيدي أي ظل من ظلال نظرية الاستعمار من الاسترخاء باطمئنان. غير أنني أخشى أن يقعوا في مطب تضليل النفس. لنفترض أنهم قاموا بإحصاء العدد المتنامي لعدد مضارب البيزبول التي تملكها عيِّنة نموذجية من المجريين سنة بعد أخرى وصولاً إلى استنتاج يقول بأن هذه اللعبة «الأمريكية أساساً وجذوراً» لن تلبث، سريعاً، أن تصبح أحد فروع الرياضة القومية الأكثر جماهيرية. تقديري أن قياسهم سيتعرض للتشويه لسبب بسيط هو أن هذه المضارب يتم استخدامها، في المقام الأول، كبدائل عن الخناجر والأمواس في المشاجرات الشارعية وعن المسدسات في أعمال حماية المسكن الشخصي، في المجر[64].

لنفترض جدلاً، للحظة، أن كل وأية بضاعة ثقافية محلية ووافدة متشابهة وأن التناسب بينها تغير باضطراد لصالح الأخيرة على الصعيدين الكمّيّ والنوعي في المجتمع كله على امتداد سني العقد الماضي. فمع مرور السنوات أعداد أكبر فأكبر من ليترات الكوك وأعداد أقل فأقل من ليترات النبيذ تتدفق على حلوق المجريين الذين يدخنون أقل، يركضون مسافات أطول في الصباح،

يتناولون جرعات أصغر من الدهون مساء، ينظمون أوقاتهم بقدر أكبر من الكفاءة، يخططون لمدخراتهم بقدر متزايد من الحرص، يكثرون من العزوف حتى عن الأشكال البريئة من التحرش الجنسي، ويغدون أكثر نزوعاً إلى الأعمال الخيرية، إلخ. ماذا عن هذا الوجه المشرق (ولو الباعث على شيء من السأم) للعولمة الثقافية؟

من شأن كل من الحماس لهذه التطورات أو التعبير عن خيبة الأمل إزاءها أن يكونا، كلاهما، مبكرين وبقدر متساو. ففي غياب المسوح أو الدراسات التجريبية المنهجية، تبقى حتى الجوانب الكمية لقصة العَوْلَمة في الظلام. وبالتالي فنحن، للأسف، لا نعلم ما إذا كان مجريونا المساكين عاكفين فعلاً على اكتساب المزيد من الرشاقة يوماً بعد يوم أم أنهم دائبون، سراً، على زيادة استهلاكهم للدهون في الوقت نفسه ـ يا له من مثال باعث على السخرية للمقاومة السلبية!

ذيل

أَخَيْراً كانَ الأَمْرُ أم شراً، كنا في هذا البلد أصحاب شَرَف المحاولة الأولى للاهتداء إلى حجارة الفسيفساء اللازمة لبذل جهد مشترك من أجل بناء لوحة غير موجودة بعد للتبادل الثقافي بين المجر والعالم. من المفهوم أننا لم نكن قادرين على رسم خارطة التأثيرات الخارجية في إطار تحليل شامل متدرج من الشِّعْر والموسيقى الكنسية إلى الطرائق التي يتبعها الناس في اختيار الأسماء لأولادهم أو في التصرف داخل المصاعد المعطَّلة. على هذا الصعيد، على الأقل، تركت جملةُ الدراسات الميدانية التي أجراها فريق بحثنا عدداً كبيراً من الفراغات في تلك اللوحة.

ومع ذلك فإن المادة التجريبية التي جمعناها أثبتَتْ أنها أكثر من كافية لإلقاء ظلال من الشك على أكثرية البديهيات المألوفة التي تعكسها صورة الفارس. فالاضطراب الواسع للتأثيرات الثقافية مع منافسة الإغراءات الخارجية

منَعَنا من فهم التوجُّهات غير الغامضة للعَوْلمة الثقافية غير القابلة للمقاومة في المجر. إنني أميل إلى الاعتقاد بأن مثل هذه التوجهات ليست، في الوقت الراهن وباستثناء عدد محدود من الميادين، موجودة. وبدلاً من ذلك فإن المرء يرى رصيداً كبيراً من الردود على الإغراءات، يعكس نوعاً من المقاومة العفوية / السلبية، التظاهر، والموازنة (عقد الصفقات التوفيقية القائمة على المساومة) في تسلسل متصل بين طرفي الانعزالية الضيقة والتقليد الأعمى (القائم على انبهار المعتنق الجديد لأحد الأديان) لكل ما يأتي من خلف الستار الحديدي السابق.

هل التوازن الناتج صحي وسليم؟ لو كان ثمة فراغ ثقافي محدد في 1989م، لبدا هذا سؤالاً معقولاً اليوم، لكُنْتُ أنا، على سبيل المثال، قادراً على تصور مَجَر أقل ضيقاً في ذلك الوقت عاكفاً على تقليد أنماط ثقافية **معيّنة** غربية (وغير غربية) أكثر، وأنماط أخرى بقدر أقل من الحماس. لشَعَرْتُ بالسعادة إزاء العزوف عن جماليات تبعية الطريق، خصوصاً في حال تعرض الابتكار الثقافي للتباطؤ، جراء وعورة الطريق الشيوعي القديم أو حتى نظيره القومي - المحافظ الأقدم. غير أن الخيار ليس تعسفياً حتى من طرف مَصْدَر الإقراض هو الآخر: فتكاليف التبادل الباهظة، جُملةُ العمليات المتطلبة للوقت، المنتجات المزدوجة، وغيرها من أشكال الجمود، قد تكون واردة في السوق الدولية للثقافات. هل كان متاحاً للمجر أن يقتصر على استيراد ثقافة التضامن من السويد دون نسخ النمط السويدي من نزعة تدخل الدولة؟ هل كان المجر قادراً على اعتماد الأسلوب الفرنسي القائم على دعم الثقافة النخبوية دون العمل على حفز نزعات قومية فرنسية الطراز لدى مواطنيه؟ أو هل كان يستطيع أن يأخذ كلاً من ثقافة الاعتماد على الذات من الولايات المتحدة من ناحية وثقافة محاباة الأقارب من اليابان من الناحية الثانية؟

بعيداً عن الإشفاق الذاتي، أرثي لحال مؤيدي العَوْلَمة المتحمسين أيضاً،

خصوصاً لأن هناك في بودابست سمعت النكتة التالية التي تسخر من فكرة تقليص عنصري الزمن / المكان، ذلك المفهوم المفضل لدى فُرسان التنظير للعَوْلَمة. تقول النكتة أو القصة الطريفة: كم من الوقت سيلزم المجريين **ليكفوا** عن وقف الفوضى؟ يأتي الجواب: سبعة قرون وثانية واحدة. في القرون الخمسة الأولى نتحرر من الأتراك، آل هابسبورغ، والروس، الذين أجبرونا، كما هو معلوم، دونما رحمة على الفوضى والتبديد. ثم هناك حاجة ماسة بصورة مطلقة إلى حوالى قرن من الزمن لتحديد معنى مفهوم «القمامة المجرية» وآخر لنسخ ومن ثم تبني القانون الألماني الراهن الذي يحظّر الفوضى والإلقاء العشوائي للزبالة. وماذا عن الثانية الإضافية؟ نعم، نحن بحاجة إليها لنتعلم فن مراوغة القانون الجديد والاحتيال عليه.

الملاحظات

(1) انظر جي. إم. كوفاتش، «Turbulenzen im Vakuum: Anmerkungen...» مقال بالألمانية في **ترانزيت** 17 (1999 م).

(2) دعوت أكثر من عشرة زملاء للمشاركة في المشروع المجري. أسسنا فريق بحث باسم حلقة الكَوْكَب، نظَّم مناقشات متخصصة للدراسات الميدانية خلال السنتين الماضيتين. ليست حلقتا عينة تمثل فئة المثقفين المجرية. يهتم أعضاء الفريق بالدراسات الثقافية دون أن يكونوا «وكلاء رسميين» ممثلين للاختصاص. باستثناء واحد، يعملون أساتذة علوم اجتماعية وينتسبون إلى الجيل المتوسط. أربعة منهم عملوا لدى تحالف الديموقراطيين الأحرار (حزب تولى الحكم خلال الفترة الممتدة من 1994 إلى 1998 م). ليس في الفريق أحد يتبنى الآراء القومية أو يحن إلى الماضي الشيوعي. فيما عدا ذلك هناك فروق واضحة بين الباحثين الأفراد داخل طيف عريض من الفكر الليبرالي. مدين أنا بشكر خاص لجميع المؤلفين: يوديت أكسادي، جيورجي دالوش، ميكلوس هازاراتي، استيفان كاماراس، إيفاكوفاتش، بيتر ميدجيش، آتيلا ميلغ بال نيري، إيندره سيك، آكوسن سيلاجي، آندراس توروك، بالاش فارادي، فيولينا زنتاي. نُشرت مقالاتهم في مجلة 2000 البودابستية ومشمولة بكتاب من تحرير جي. إم. كوفاتش بعنوان: **دراسات حول العولمة الثقافية في المجر** (بودابست: 2000 ـ سيك كيادو، 2001 م).

(3) من الصعب العثور على مثال أوضح عن كتابة اليد غير القابلة للإمحاء في أيامنا من النشيد

القومي الروسي. بموجب قرار حديث اتخذه مجلس الدوما تمت إعادة الاعتبار للنشيد السوفييتي وجرى تكليف الشخص نفسه الذي كان قد كتب كلمات النشيد الأصلي، سيرجي ميخايلكوف، بتعديل الصياغة بما يتفق مع ظروف ما بعد النظام السوفييتي.

(4) من أجل الاطلاع على أحد الانتقادات الموجهة إلى مفهوم البلقنة، أنظر ماريا تيودوروفا، **تصور البلقان** (نيويورك: مطابع جامعة، أكسفورد، 1997 م)، و، في إطار أوسع، لاري وولف **اختراع أوروبا شرقية** (ستانفورد: مطابع جامعة ستانفورد، 1994 م). وللاطلاع على مثيل للبلقنة من حيث مقاومة «الغرب من قبل الآخرين» أنظر بنيامين باربر، **الجهاد في مواجهة عالم الماكدونالد** (نيويورك: كتب التايمز، 1995 م). أمّا حول قبول كل من أطروحتي التغريب والبلقنة عبر تقسيم المنطقة إلى جزأين، فانظر ساموبل هنتنغتون، **صدام الحضارات وإعادة صياغة النظام العالمي** (نيويورك: سايمون وتشستر، 1996 م)؛ وساموبل هنتنغتون ولورنس هاريسون (محررين)، **للثقافة شأنها** (نيويورك: بيسك، 2000) (خصوصاً فصل رونالد انغلهارت «الثقافة والديموقراطية». أنظر أيضاً روجر بورباخ وآخرين، **العولمة والساخطون عليها: ظهور اشتراكيات ما بعد الحداثة** (لندن: بلوتو، 1997 م) للاطلاع على سيناريو مرعب لتطورات ما بعد النظام الشيوعي.

ما زالت الدراسات الثقافية قاصرة عن اكتشاف أوروبا الشرقية. ففي الأعمال الواردة في الهامش رقم 15، مثلاً، ثمة إشارات قليلة إلى التطورات الثقافية في المنطقة. وللاطلاع على تحليل تفصيلي لتغطية **النيويورك تايمز** للكتلة الشرقية السابقة، أنظر آتيلاميلغ، «حجارة جديدة، جدران قديمة: أوروبا الشرقية على الخارطة الحضارية للنيويورك تايمز» **62000** (1999 م) (باللغة المجرية).

(5) لعل الطبعة البلقانية لهذه اللغة الصحفية الإنجليزية هي «من الخطة إلى القبيلة».

(6) يطلق على هؤلاء في روسيا اسم **نوفوريشي** (الأغنياء الجدد) أو «الروس الجدد» بمعنى أوسع.

(7) عبثياً، لن تتردّد أوروبا الشرقية كلها، إذن، في أن تحذو حذو التشيك الذين بادروا مؤخراً إلى اختراع شعار «أولبرايت ناهارد!» (محرفين عبارة «هافل في القلعة!»)، فتنتخب صناع سياسة غريبيين استقالوا من بلدانهم. مؤخراً، وجد الساسة الشعبويون في المجر صعوبة في التسليم بافتتاح مكتب للإف. بي. آي. في بودابست، وبقيام رجال شرطة ألمان بحراسة مواطنيهم على شواطئ بحيرة البالاطون في الصيف. أنظر أيضاً إيڤا كوفاتش، «محتلون، ضيوف، جيران: القاعدة العسكرية الأمريكية الأولى في المجر»، 2000 / 3 (2001 م) (بالمجرية).

(8) متبعة طريقاً أكثر وعودة وصلت البوذية إلى المجر من الولايات المتحدة عبر أوروبا؛ انظر استيفان كاماراش، «الكوكبية والمحلية في الحركات الدينية الجديدة بالمجر»، 2000 / 5 (2001 م).

(9) رئيس جهاز العلاقات العامة في القاعدة العسكرية الأمريكية في تاسار، وهو سجّان محترف، قال لنا صراحة إنه لا يعرف شيئاً ذا بال عن المجر (فيما عدا أنها دولة قديمة، وطن

دراكولا[!]، كان محتلاً من قبل الروس). غير أنه كان واضحاً له من البداية أن على الأمريكيين أن يتصرفوا بقدر أكبر من التهذيب مقارنة بالسوفييت، أن يترددوا على الكنيسة مع المجريين، أن يمكّنوا الأطفال المحليين من الاستمتاع برؤية أسلحتهم، وأن يتعاملوا برفق مع المسنين. قد يكون على صواب، غير أن التحلي ولو بقدر رفيع جداً من القرابة الثقافية، كما تبين حالة ألمانيا الموحدة، لا يكفي للحيلولة دون حدوث احتكاكات شرقية ـ غربية.

(10) فيما يخص الإيديولوجيات الغريبة، يكْمن أحد الأسباب الواضحة لعدم انتشار بعض بنود ثقافة نادي الكلية في أوروبا الشرقية في كونها شبيهة بما كان الشيوعيون يمثلون كلاماً (مثل الحركة النسوية، التعددية الثقافية) أو فعلاً (الكوتات، أنظمة اللغة، التفسير الدوغمائية للمذاهب الاجتماعية). انظر بوديت آكسادي، «هل كنا بحاجة إلى حركة نسوية؟ المجر بعد 1989 م»، 2000 / 7 ـ 8 (2001 م).

(11) إذا أردتم مثالاً آخر عن صور مضطربة ثمة، برأي رئيس سابق للمنبر الديموقراطي المجري الذي قاد الحكومة الائتلافية بين سنتي 1990 و1994 م، بودابست المطوقة اليوم بحزام من زوايا (مولات) التسوق الغربية كما كانت في سنة 1956 م محاصرة بأرتال من الدبابات السوفييتية (انظر **الراية المجرية**، 24/ 10/ 1998 م).

(12) معظم الحركات الدينية الجديدة في المجر موضوعة في هذه الخانة من قبل «الكنائس التاريخية». وليست مقاومة الكنيسة القومية الإصلاحية التقليدية الجذرية العنيدة لما تطلق عليه اسم «الطوائف» إلاّ مثالاً صارخاً، (انظر كاماراست «الكوكبية والمحلية»).

(13) منذ سنة 1998 م يعيش المجر ثانية في ظل حكومة قومية ـ محافظة. فيما يلي غيض من فيض مجموعة رموزها الثقافية المفضلة: الطبقة الوسطى المسيحية، ابن المدينة (البورغر Bürger) المجري (على النقيض من مفهوم المواطن الجمهوري)، مجر الأرياف، العائلة المثالية ذات «الأطفال الثلاثة، العجلات الأربع، والغرف الثلاث»، «كتلة الأمة» المجرية، بلد التاج المقدس، الألفية المجرية، الجندي المجري الشجاع، الالتحاق بركب الاتحاد الأوروبي من منطلق الكبرياء القومية (حسب تعبير رئيس الوزراء فكتور أوربان، «ثمة حياة خارج الاتحاد»). وللاطلاع على العواقب المترتبة على هذا الموقف الإيديولوجي من قيام المجرد بتصدير الثقافة، انظر جيورجي دالوس «نجاحٌ أَخْفَقَ: تصدير الأدب من المجر (قصة معرض كتاب فرانكفورت)»، 2000 / 10 (2001 م) (بالمجرية).

(14) يتضح مدى ضعف المقاومة المنظمة من خوض «حراس اللغة» (كما يحلو لبعض اللغويين في المجر أن يسموا أنفسهم) كفاحاً دام عقداً كاملاً من الزمن لإجبار أصحاب المحلات على ترجمة (لا إزالة) الأسماء الأجنبية لمحلاتهم. لم تتم مناقشة المبادرة في البرلمان حتى الآن. انظر بيتر مادغيس «إنجليزي جيد ـ جيد جداً: أفكار عن انتشار اللغة الإنجليزية في المجر» 2000 / 10 (2000 م) (بالمجرية).

(15) لا يزال الجدل الأكاديمي حول العولمة في المجر جنينياً. جاءت المساهمة الأولى، المريرة

إلى حدود معينة، من أساتذة السوسيولوجيا الذين عبَّروا عن الشكوى من المؤسسات الأكاديمية الغربية باستغلال مهنتهم، من جيورجي تشبلي، آناتال أوكني، وكيم لين شبيله، مثلاً في مقال «استعمار العلوم الاجتماعية الشرق أوروبية» في مجلة **البحوث الاجتماعية** 63 (1996 م). أمّا الآن فإن حواراً بين الطرشان مثقلاً بشحْنة قوية من العواطف الملتهبة والنزعات السياسية القوية يمكن أن يشكل وصفاً ملائماً للجدل الدائر. على العموم يبقى القالب هو التالي: رُعْب دائم، لدى أساتذة السوسيولوجيا في المقام الأول، من الاستعمار كما من الانحطاط الاجتماعي والثقافي، يتم التصدي له بآراء براغماتية صادرة عن اقتصاديين دائبين على إطلاق رسائل مطَمْئنة عن محاسن العولمة الاقتصادية. (قارن مع المناقشة المؤثرة التي دارت على صفحات **النابساباتشاغ** في آب / أغسطس ـ أيلول / سبتمبر 2000 م، التي بدأت بمقالة لكل من لاسلو آنتال، استيفان تشيلاغ، وبيتر ميخايلي، «تفسير العولمة»، 12 آب / أغسطس). انظر أيضاً مراثي أَخَف وطأة عن التطورات الكوكبية في الثقافة بقلم تشاباغومبار وهيدي فولوشين، محررين، **مساءلة الحضارة** (بودابست: هليكون ـ كوريدور، 2000 م) (بالمجرية)؛ بيتر غيورغي، **الفردوس الرقمي** (بودابست، ماغفيتو، 1998 م) (بالمجرية)؛ إيلمر هانكيس، **البعث البروليتاري** (بودابست: هليكون، 1999 م) (بالمجرية)؛ آكوس سيلاغوي، «المكان المتخيل»، 2000 / 4 (2001 م) (بالمجرية)؛ تشابا غومبار وآخرين، محررين، **الولايات المتحدة المجرية؟** (بودابست: هليكون ـ كوريدور، 2001 م). وللاطلاع على نقد عنيف للعولمة، انظر غيزا آنكرل، **الغرب موجود، الشرق غير موجود** (بودابست: أوزيريس، 2000 م) (بالمجرية)؛ إيرجبت سالاي، **ما بعد الحداثة والعولمة** (بودابست: أوج مانداتوم، 1999 م). أمّا وجهات النظر العولمية الصريحة (المؤيدة للعولمة) فهي نادرة (انظر، مثلاً، لاسلو سيرش وآخرين، «العولمة: دوائر الحرية الكبرى» **ماجار هيرلاب**، 5/ 6/ 2000 م (بالمجرية).

على الرغم من أن الإشارات في النقاش إلى الأدبيات الغربية الراهنة عن العولمة والثقافة ما زالت نادرة فإن الآراء المعادية للعَوْلمة أو المشككة بها في المجرد لا تختلف في الحقيقة عن تلك التي يمثلها زيغمونت باومان **العولمة: عواقبها الإنسانية** (نيويورك: مطابع جامعة كولومبيا، 1998 م)؛ فريدريك جيمسون وماساو ميوشي، محررين، **ثقافات العولمة** (دورهام، إن. سي.: مطابع جامعة ديوك 1999 م)؛ سيرج لاتوس، **تغريب العالم** (كامبردج، المملكة المتحدة: بوليتي، 1996 م)؛ روبرت فيليبسون، **إمبريالية اللغة** (أكسفورد، مطابع جامعة أكسفورد، 1992 م)؛ جورج ريتزر، **إضفاء الصفة الماكدونالدية على المجتمع**، (ثاوزاند أوكس، كاليفورنيا، باين فورج، 1993 م)؛ ساسكيا ساسّن، **العولمة والساخطون عليها** (نيويورك: نيوبرس، 1998 م)؛ جورج شوروش، أزمة **الرأسمالية الكوكبية** (نيويورك: بَبْليك أفيرز، 1998 م)؛ جون توميلسون، **الإمبريالية الثقافية** (مطابع جامعة جون هوبكنز 1991 م) (جون توميلسون، **العولمة والثقافة** (كامبردج، المملكة المتحدة: بولين 1999 م)؛ إيمانويل

فالرشتاين، **سياسة الجغرافيا وثقافتها** (كامبردج، مطابع جامعة كامبردج، 1997 م)؛ روب وِلْسُن ووِيمال ديسّاناياكه، محررين، **الكوكبي / المحلي: الإنتاج الثقافي والصورة العابرة للحدود القومية** (دورهام: مطابع جامعة ديوك، 1996 م).

(16) من مفارقات استخدام الشبكة (الإنترنت) لنشر الثقافة الشيوعية بعد النظام الشيوعي أن هناك برنامجاً **لصندوق الثقافة القومي** باسم **الخالدون الرقميون**. ولتجنب النقاش الشامل للبلاد (وغير المثمر ربما) حول أفضل الكتّاب والشعراء في المجر، قرر وزير الثقافة في الحكومة السابقة أن يضع على الإنترنت في النصف الثاني من الأربعينيات. وبالتالي فإن نادي الخالدين الرقميين يضم عدداً كبيراً جداً من فناني الدرجة الثانية الذين تميزوا بالولاء للنظام القديم.

(17) لقد اعتمد البحث التجريبي في حلقة غلوبوس على طيف واسع جداً من الأساليب المنهجية: الدراسات الميدانية، عينات محددة، مقابلات خبراء، تحليل وسائل الإعلام، رصد المشاركين، إلخ. غير أننا لم نقم بإجراء أية مسوح سوسيولوجية جديدة.

(18) انظر بيتر إل. بيرغر، «أربعة وجوه للعولمة»، **ناشيونال إنترست** 49 (1997 م).

(19) يمكن فهم اللَّبْرَلَة على أنها مزاوجة بين ثقافتي دافوس ونادي الكلية إذا كان نادي الكلية حاملاً لأفكار كلاسيكية عن الليبرالية الاقتصادية والسياسية أيضاً، دون الاقتصار على نقدها فقط.

(20) أوجد العقل الشعبي خليطاً غريباً من بعض صادرات المجر الثقافية الأسطورية مثل مخترع القنبلة الهيدروجينية، إدوارد تلر؛ ألبر سنتغيورغي، الذي اكتشف الڤيتامين سي وحصل على جائزة نوبل؛ المؤلف الموسيقي بيلا بارتوك؛ لاعب كرة القدم فرنتش بوشكاس؛ والنجمة السينمائية زازا غابور (جميعهم مغتربون، بالمناسبة). وفي أوقات لاحقة لم ينجح في الالتحاق بالركب سوى كل من جورج شورش وإيرنو روبيك، مخترع المكعب السحري.

(21) كان التحدي الوحيد للجنود الأمريكيين الذين جاؤوا إلى قاعدة ناسار متمثلاً بالعبارة المفعمة بالسخرية: «كان يجب عليكم أن تأتوا من قبل!» [لماذا تأخرتم؟!].

(22) مع تردّدي إزاء تقسيم العالم إلى ثقافات «قوية» وأخرى «ضعيفة»، لن أعترض على أن المحر يعاني من نقاط ضعف فعلية تتدرج من الافتقار إلى عائلة عرقية أكبر إلى عدم الأهمية الجيو - سياسية. غير أن نقاط الضعف هذه لا تجلب الخضوع المباشر لثقافات «قوية». العكس هو الصحيح، من شأنها أن تتمخض عن استراتيجيات مقاومة مراوغة حقاً، تكون بعيدة عن أي صدام مباشر أو حرب ثقافية.

(23) قارن مع أرجون آبادوراي، **الحداثة طليقة: أبعاد العولمة الثقافية** (مينيابوليس: مطابع جامعة مينيزوتا، 1996 م)؛ آرجون آبادوراي، «العولمة القاعدية» مجلة **الثقافة العامة**، شتاء 2000 م؛ جوانا بريدنباخ وإينازو كريغل، **رقصة الثقافات: الهوية الثقافية في عالم معولم** (بالألمانية) (ميونيخ: كونستمان، 1998 م)؛ مايك فَذَرْسْتون، سكوت لاسن، ورونالد روبرتسون، محررين، **حداثات كوكبية** (لندن: سيج، 1995 م)؛ أولف هانَرْز، **التعقيد الثقافي** (نيويورك: مطابع جامعة كولومبيا، 1992 م)؛ دون كالب وآخرين، محررين، **غايات العولمة: استعادة**

المجتمع (لانهام: رومان ولتلفيلد، 2000 م)؛ ماريوفارفاس لوسا. «ثقافة الحرية» مجلة فورين بوليسي، كانون الثاني / يناير ـ شباط / فبراير 2001 م؛ رونالد روبرتسون، **العولمة: نظرية اجتماعية وثقافة كوكبية**، ثاوزند أوكس، كاليفورنيا: سيج، 1994 م)؛ جيمس إل. واطسون، محرراً، **أقواس ذهبية شرقاً: مطاعم ماكدونالد في شرق آسيا** (ستانفورد: مطابع جامعة ستانفورد، 1997 م).

(24) يعتز المجريون برعاية تقليد المقاومة السلبية المنظمة لإمبراطورية آل هابسبورغ بين سنتي 1849 و1867 م، الذي قيل إنه تكرر تحت الحكم السوفييتي في أعقاب هزيمة ثورة 1956 م. امتنع المجريون عن إعطاء أولادهم أسماء روسية وعن إجبارهم على تعلم اللغة الروسية. غير أن أقلية صغيرة فقط من الشخصيات العامة اختارت الهجرة الداخلية، كما لم يبادر أحد، عملياً، إلى مقاطعة السلع الاستهلاكية والثقافية السوفييتية. على الرغم من أن ذكرى المقاومة السلبية ربما لا تزال حية في المجر، فإن الحالة الراهنة لمواجهة الضغوط الثقافية الكوكبية تشي بالعفوية أكثر مما توحي بالتنظيم. حالياً تبقى أيقونات الاحتجاج الثقافي غائبة كما أن رموزه عتيقة من الطراز القديم. ليست المقاومة نشيطة ولا هي منظمة.

(25) انظر، مثلاً، مساهمات يوسف برودسكي، فاتشسلاف، غيورغي كونراد، ميلان كونديرا، وتشيسلاف ميلوسن في المناقشات الدائرة حول أوروبا الوسطى في العقد التاسع من القرن العشرين. انظر جورج شوبفلن ونانسي وود، محررين، **بحثاً عن أوروبا الوسطى** (أكسفورد: بوليتي، 1989 م)؛ تيموثي غارتون آسن، **فوائد التنوع: مقالات حول مصير أوروبا الوسطى** (كامبردج: غرانتا بوكس، 1989 م).

(26) من الستينيات وصاعداً أصبح الفن السوفييتي المقدّم إلى البلدان الدائرة في الفلك السوفييتي متجاوزاً ثقافة «الواقعية الاشتراكية» المبتذلة. لعل من أهم المؤن الثقافية الواردة من الاتحاد السوفييتي مسرح البولشوي، ديفيد أويستراخ ومُسْتسلاف روستروبوفيتش، فرقة رقص مويسييف، مسرح عرائس أوبرازشوف، سيرك موسكو، سيرجي يسينين وآندري تاركوفسكي، لوري ليوبيموف وآركادي دايكم، فلاديمير فيسوتسكي وبولات أوكوجاوا، آنا آخماتوفا وألكسندر سولجنيتش، أو الأغاني الشعبية الروسية الدارجة في المدارس التي لقيت ترحيباً جيداً واكتسبت قدراً غير قليل من الشعبية في المجر. ينطبق الشيء نفسه على أنواع معينة من الرياضة التي أبدى فيها السوفييت كفاءات تكاد تصل إلى مستوى الابتكار والتفنن (مثل الشطرنج، الهوكي، الألعاب السويدية). انظر آكوس سيلاغيي، «آثار في الأطلال: بين السَّفْيَنَة والعولمة ذات الطابع السوفييتي»، 2000، 2001 م (بالمجرية).

(27) مما يتذكره فيلسوف مجري مرموق: «قبل بضع سنوات التقيت بفلكي ورياضي (عالم رياضيات) من جيلي في بوسطن ممن هاجروا من جمهورية الصين الشعبية، في حفل جامعي ممل أدركنا كم كانت طفولاتنا متشابهة. فقد درجنا على قراءة كتب الأطفال ذاتها، تلك التي ألّفتها غايدار، كاتاييف، كافرين، مارشاك، وتشاروشين. وكنا ننشد الأغاني نفسها:

الوراصويانكا وأغنية **فدائيي الآمور**. كنا نمضي فصول الصيف في معسكرات طلائع على الشاطئ. أما شكوكنا الأولى فقد برزت حين بدأنا نقرأ ملتون، سبينوزا، وهيغل، أي الفلاسفة الذين كان تراثهم الفكري، بنظر الشيوعيين، ذا علاقة بالطبقة العاملة. كنا نمارس لعبة الكرة الطائرة (الفولي بول) لأن سبباً أو آخر كان قد جعل هذه اللعبة تحظى بمباركة مدراء المدارس الثانوية الشيوعية في العالم كله. أخيراً، كان حزننا، كالأطفال، كبيراً، على كل من كارل ليبكنخت وروزا لوكسمبورغ. ومع ذلك فإن الاستاذ الجامعي (البرفسور) هنتنغتون يقول إننا ننتمي إلى حضارتين متعاديتين». (جي. إم. تاماش، «هنتنغتون على خطأ» **(رسالة المجر الدولية**، ربيع 1998) (بالمجرية).

(28) لعل التحديث الرديء (الذي تشكل مشروعات المحطات النووية الشبيهة بتشيرنوبل في البلدان الشيوعية السابقة مثالاً صارخاً) هو أحد السمات المحدَّدة للامبريالية الثقافية السوفيتية. فهذا النوع من الاستعمار، خصوصاً في العقدين الأخيرين، كان مشحوناً بمفارقة ادعاء التفوق على هذه الثقافات غير الشيوعية من جانب المستعمرين دأبوا على غرس مشاعر الدونية إزاء تلك الثقافات. فالاستراتيجية الامبريالية للاتحاد السوفيتي كانت دفاعية بمعنى عزل مواطنيه عن المستعمرات وإبقاء قوات الاحتلال خلف الأبواب المغلقة تجنباً للتلوث الثقافي. أما حقيقة أن الثكنات العسكرية السوفيتية قد أصبحت مصادر سرية غزيرة لأجهزة التلفزيون الملوَّنة، مضخات المياه، وبنادق الكلاشينكوف للسكان المحليين في سائر دول حلف وارصو فتسلّط الأضواء على الطابع الملتبس لوضع المستعمرين.

(29) لكم أن تقارنوا بين ريتشارد كويزل **إغواء الفرنسيين: معضلة الأمْرَكَة** (بيركلي: مطابع جامعة كاليفورنيا، 1993 م)؛ كاسبار ماسه، **برافو أمريكا** هامبورغ: يونيوس 1992 م)؛ ريتشارد بيلر، **ليسوا مثلنا: كيف أحبَّ الأمريكيون الثقافة الأمريكية، كرهوها، وحوَّلوها منذ الحرب العالمية الثانية** (نيويورك: بيسك، 1997 م)؛ راينهولد واغنلايتز، **الفرق في الكوكاكولا والحرب الباردة: الرسالة الثقافية للولايات المتحدة في النمسا بعد الحرب العالمية الثانية** (تشابل هل: مطابع جامعة كارلاينا الشمالية، 1994 م)؛ راينهولد واغنلايتز، امبراطورية السخرية، أو بلوزتالكين في الاتحاد السوفيتي. صوت الحرية والهيمنة الثقافية الأمريكية في أوروبا»، **التاريخ الدبلوماسي** 23/ 3/ (1999 م).

(30) ثمة مثال ملتبس للظاهرة نفسها قدمته شركة كوكاكولا التي خططت قبل عامين أن تزين الجسر المسلسل التاريخي في بودابست باللونين الأحمر والأبيض احتفالاً بعيد الميلاد. أما عن كيفية إخفاق الشركة في ذلك فانظر زولتان فيجوس، «الكوكاكولا والجسر المسلسل»، **مقهى بابل** 2(1998 م).

(31) يحمل أحد مراكز الأعمال في النصف البَسْتي من بودابست اسم مركز بست المحير (انظر موجيس، «انجليزي جداً ـ جيد جداً»).

(32) من المفيد التمييز بين هيمنة مباشرة وأخرى غير مباشرة، خصوصاً في نوعين من الهيمنة غير

المباشرة: (1) بضائع ثقافية أمريكية شمالية من حيث الجوهر محمولة عبر قنوات غير أمريكية (مثل المسلسلات الأمريكية اللاتينية الخفيفة) و(2) بضائع غير أمريكية أساساً تنقلب إلى أنماط نموذجية أمريكية (وكوكبية بالتالي) (مثل البروش رمزاً للتأنق). أما فيما يخص الآثار المباشرة فسأقترح معاينة المستوردات الثقافية الأصيلة من الولايات المتحدة (مثل موسيقا البوب) من ناحية، والبضائع الاقتصادية / السياسية المستوردة المنطوية على التغيير الثقافي (مثل تعلم الجنود المجرمين للغة الانجليزية في الناتو) من ناحية أخرى.

(33) حاذياً حذو التوغل ذي الطراز السوفيتي، يأتي توسع النظام العالمي الصيني في المجر موجهاً (أو مستغلاً على الأقل) من جانب الدولة ويفترض توطين أعداد كبيرة من المجموعات «المعولمين» (وإن لم يكونوا جنوداً)، الذين كثيراً ما يكونون، رغم تمثيلهم لحضارة عظيمة، واقعتين تحت وطأة مشاعر الدونية إزاء السكان الأصليين. ثمة فارق هائل بين الاثنين ألا وهو الطابع التجاري المهيمن للتوسع الصيني فضلاً عن الاستخدام الواسع لتقنيات العولمة الغربية من جانب سائر الشبكات التجارية والمافيات. انظر بال نيري، «العولمة غير الغربية في مجر ما بعد الشيوعية: قصة الهجرة الصينية»، 2000/ 10 (2000 م) وبالمجرية.

(34) مشاغل أودي في المجر الغربي تشغِّل عمالاً في سلوفاكيا؛ جني المحصول في المجر الشرقي متوقف على استقدام عمال موسميين من رومانيا؛ أدَّت الحروب اليوغسلافية إلى إجبار العديد من المهاجرين المنشقين، رجال الأعمال، وعشرات آلاف النازحين على استيطان المجر مرة أخرى؛ مئات المزارعين النمساويين يزرعون الأرض المجرية الرخيصة على الحدود نفسها بصورة غير شرعية؛ تقوم مؤسسات الأعمال الروسية الكبرى بتوظيف استثمارات مكثفة في المجر المرشح لأن يصبح عضواً في الاتحاد الأوروبي في المستقبل؛ وتشكِّل بودابست مكان لقاء (وساحة معارك) مفضَّلاً بالنسبة إلى مافيات أوروبا الشرقية، محطة مناسبة لتجارة المخدرات والدعارة، وبؤرة سيِّئة الصِّيت لإنتاج أفلام العري الإباحية. أخيراً، إذا أردنا إيراد أمثلة أكثر سلمية للتعايش، يمكن الحديث عن اتخاذ العديد من الشركات متعددة الجنسيات، الوكالات الدولية، والمنظمات غير الحكومية العاصمة المجرية، حالياً، مقراً لها؛ منذ الآن أصبحت جامعة أوروبا الوسطى التي أسَّسها جورج شورش مركزاً دولياً كبيراً للتعليم العالي في المنطقة. أما عن مواصفاتها (الكوكبية ـ المحلية) فانظر فيوليتا زنتاي «هدايا متبرع زئبقي أو كيف تتحول فكرة المجتمع المنفتح إلى فكرة ذات صفة محلية ومعولمة» 2000/ 4 (2002) (بالمجرية).

(35) كما يطلق عليها هذه الأيام اسم «السياحة الفاشية» (المظاهرات النازية الجديدة المتكررة في بودابست)، هي الأخرى، جذورٌ نمساوية وألمانية.

(36) تتولَّى الحكومة المجرية رعاية تلفزيون دونا، قناة فضائية تلفزيونية مخصصة للمجرمين الموجودين في البلدان المجاورة؛ مؤخراً بادرت شركة النفط الحكومية المجرية، مول MOL،

إلى شراء منافساتها في كل من كرواتيا وسلوفينيا؛ ثمة جامعة مجرية يجري تأسيسها في ترانسفاليا الرومانية، تحصل الأحزاب القومية المجرية في كل من سلوفاكيا، رومانيا، ويوغسلافيا على دعم قوي من جانب بودابست، وإلخ.

(37) توظف شركة سوزوكي ألوان العلم المجري الأحمر، الأبيض والأخضر، مع الشعار الوطني «سوزوكي هي سيارتنا!» في الدعاية لسياراتها.

(38) من شأن التخطيط للتغييرات الحاصلة في «ثقافة صالات الموسيقا» (كناية عن الثقافة الراقية) والناجمة عن سماتها الكوكبية الجديدة أن يشكّل بُعْداً آخر ذا أهمية (الأصوات الثلاثة؛ هاري بوتر المدعوم من الإنترنت؛ وتلفزيون **اليوم الألفي** المحتفي بالتنوع الثقافي). ليس في المجر سوى عدد قليل من حملة لواء الثقافة النُّخْبوية ممن يعتبرون هذه الأمثلة أدلة على إعادة البناء بدلاً من الانحطاط.

(39) في البداية كان التغير الثقافي مدهشاً في مجالات كانت من قبل مغلقة بفعل المحرمات الشيوعية الأشد قسوة (مثل الجنسية، حقوق الملكية، وسائل الإعلام، الدين، التمثيل الجنسي) أو بحواجز اقتصادية (مثل فقدان القوة الشرائية). أما بعد 1989 م فقد تمخض التدفق السريع المدهش لأيقونات الثقافة المختارة الآتية من الرأسمالية الغربية مثل البلي بوي Playboy، الشركة المساهمة، وبطاقة الفيزا، على أوروبا الشرقية عن إحداث انطباع لدى أكثرية المراقبين بوجود ثورة ثقافية يتعذر وصفها.

(40) مما يبعث على السُّخْرية أن تدفق هذه البضائع جرى حَفْزُه عبر ظلالها المقلدة (فبعض المنتجات المجرية كانت ستار كولا، ترابر جينز، وجبات سيتي غريل السريعة، إلخ)، التي لم تكن قادرة على حمل المعنى الرمزي نفسه لنظائرها الغربية.

(41) أحد الأمثلة الحديثة عن صراع «الغرب ضد الغرب في الشرق» تجلّى في بلغراد أثناء حرب كوسوفا في حفلات لموسيقا الروك جرى تنظيمها على جسور الدانوب المستهدفة من قبل حملات القصف الناتوية.

(42) إحدى الخطوات الأولى التي أقدمت عليها الحكومة القومية ـ المحافظة الراهنة على سبيل التصدّي لما أطلقت عليه اسم «التأثير الثقافي الغريب»، تمثلت بمركزة نظام المنح العامة، بتطهير لجان المنح، وبتحديد أولوياتها الإيديولوجية بدقة. انظر آندراس توروك، «صعود وسقوط صندوق الثقافة القومي في المجر»، (مخطوطة غير منشورة) (بالمجرية).

(43) في المجر حتى الليبراليين كانوا يرون الترتيبات ذات الطراز الشبيه بالبي. بي. سي. بعيدة عن المبالغة والإفراط في مجال لَبْرَلَة وسائل الإعلام الجماهيري الإلكترونية بعد النظام الشيوعي. وعلى الرغم من دعمها المضطرد للخصخصة إلى نقطة إيجاد بيئة تنافسية للقنوات العامة، فإنها ظلّت قاصرة عن الدعوة إلى اعتماد النموذج الأمريكي لأنها ظلّت خائفة من «المبالغة» في التسليع وإضفاء الصفة التجارية. انظر ميكلوس هاراستي، «دمقرطة وسائل الإعلام: مفارقات ما بعد الشيوعية في المجر»، 2000/ 3 (2002 م) (بالمجرية).

(44) قانعاً بسلامة محاولة بَذَلَتْها الحكومة لدمج الجامعات في المجر، امتنع البنك الدولي عن المطالبة بخصخصتها؛ قامت الحكومة السابقة باعتماد أسلوب تمويل هولندي قائم على عدد الطلاب وقاومت (كما فعلت خليفتها) أي نظام قائم على الضمان أو الكفالة. انظر بالاس فارادي «تأثير العولمة على الجامعات في المجر»، 2000/ 3 (2002 م) (بالمجرية).

(45) تعود مقاومة «الأمْرَكَة» جزئياً إلى حقيقة أن تقاليد ألمانية كثيرة كانت قد تعززت على أيدي الشيوعيين، خصوصاً على أصعدة التنظيم الحزبي، الثقافة العسكرية، الإدارة العامة (بما فيها المدارس، المشافي، المسارح وإلخ)، وإدارة العلوم. في الوقت نفسه، تم استيراد العديد من المبادئ الليبرالية الطليعية لإصلاح نظام التقاعد الأخير في المجر من التشيلي (بمساعدة أحد المهاجرين المجريين ودعم البنك الدولي). أما الأنظمة الجديدة الخاصة بإدارة المصارف فكانت ذات جذور أمريكية؛ فالحصة المتدنية جداً للإسكان العام، مثلاً، تذكّرنا بالمعايير الأمريكية. وعن انتشار الكتب التعليمية الأمريكية عن الخط الرئيسي في الاقتصاد في الجامعات المجرية، انظر يانوس ماتياس كوفاتش «نَسْخٌ أم محاكاة؟ الاختراق الملتبس لاقتصاد التيار الرئيسي في الفكر الاقتصادي المجري»، 2000/ 2 (2002 م) (بالمجرية).

(46) من الواضح أن المبادىء المتنافرة قابلة للتوفيق. ففي حين أن الخط القويم السياسي قد يكون ذا قيمة تجارية في الغرب (مثل رسائل التعددية الثقافية الصادرة عن مؤسسات ماكدونالد، بنيتون، وآيكيا)، لم يكن هناك في المجر أي تقارب بين المجالين. إن الظهور الأخير للزنجي الأول في كرة القدم، التلفزيون، المسرح المجري لا يستطيع خداع المراقب: ما زالت كبرى أقليات البلاد، الغجر (حوالي 5 ـ 8 بالمئة من مجموع السكان) مفتقرة إلى التمثيل الفعلي أو الرمزي ليس في الحكم والثقافة الراقية فقط بل وفي الحملات التجارية أيضاً.

(47) ومع ذلك فإن أي جهد لم يُبذل في سبيل جلب النمط الثقافي لـ «العزوف بكبرياء طبقة وسطى» جنباً إلى جنب مع الماركات الأخف.

(48) من الممكن ملاحظة مصادفة مماثلة في أمثلة بطاقات الائتمان (التي تمكّن الزبائن في البنوك الشيوعية السابقة من تجنب التحويلات البطيئة وغير الباعثة على الثقة)، زوايا التسوق [المولات] (التي توفر فرصاً ممتازة لغسيل الأموال) والطرق السريعة (التي توفر فرصة رائعة للحكومة من أجل تقوية الشبكات المحلية وتوجيه الأموال العامة نحو تمويل الأحزاب الحاكمة).

(49) حول الأمريكي الأصلي والصلات الشيطانية لفرقة «قارعي الطبول (الشامان) (السحرة)» المجرية. انظر كاماراش «الكوكبية المحلية».

(50) مما يثير السخرية أن السيناريو الذي تشي به النكتة القديمة، الذي يمكنه أن يوفر الفرصة الوحيدة للمواطنين المجريين للعيش في ظل النظام الرأسمالي هو إعلان الحرب على الناتو وصولاً إلى تمكينه من احتلال البلاد، قد تم تطبيقه بشكل من الأشكال في يوغسلافيا من قبل سلودبودان ميلوسوفيتش.

(51) حتى في أواخر الثمانينيات كانت كلمة «أجنبي» تمثل اسم ماركة في واجهات المحلات المجرية. من اللافت للنظر أن شعار حَمْلة الحزب الشيوعي في الانتخابات الحرة الأولى كان مستمداً من صَرْعة بوب تحمل اسم «اذهبنوباً!».

(52) للاطلاع على الصور (المُذِبَّة في الغالب) لـ «الداعين الشرقيين» التي طوَّرها «المدعوون الغربيون»، انظر آتيلا ميلغ، «خرائط أطراف كوكبية: الحكايات، الهويات، وتمثيل أوروبا الشرقية»، 2000/ 2 (2002 م) (بالمجرية).

(53) لا شعبية التفكير الموضوعي ليست غريبة بعد كل هذه الأعوام من التفاؤل القَسْري في ظل الشيوعية. غير أن الاحترام المتدني المتواصل للخصوصية في المجر، رغم الذكريات المرعبة الموروثة عن الإرهاب والرقابة الشيوعيين، أمر يدعو إلى الحيرة.

(54) تشتمل الأنماط الجنينية لـ «أوائل المقتبسين» في ظل النظام الشيوعي على أبناء الطبقة الوسطى الغنية الحديثة، المتأنقين، المشاهير، النجوم، والتلفزيون، بالطبع، بوصفه الحامل الرئيسي لتأثيرات العرض. صحيح أن هذا ليس مقالاً عن سوسيولوجيا العولمة، غير أنني أرى أن عدداً غير قليل من البضائع الثقافية الكوكبية (الأرخص، بالطبع، مثل المسلسلات الخفيفة، موسيقا الطَّرْق (الراب)، التاتو، كمال الأجسام، أفلام الفيديو، إلخ) يتم استيراده إمّا مباشرة أو عبر التلفزيون من قبل الجماعات ذوات المستويات الدنيا من المجتمع. أما فيما يخص النظام القديم، فإن الباحثين ظلُّوا، إلى الآن، غافلين عن الدور الطليعي الذي اضطلع به المغتربون **والنمط الرمزي السائد** على صعيد نقل أنماط الحياة الغربية.

(55) يحقق عيد الحب (يوم فالنتاين) نجاحاً كبيراً في المجر جراء الدعم الذي يلقاه من بائعي الورود والشوكولا مع الرسالة البريئة التي يحملها الطقس. غير أن ممارسات ثقافية أمريكية ملتبسة معينة (مثل عدم التشدد في مجال الأسلحة النارية، عقوبة الإعدام، العناد دَوْر الطبابة النفسية في الحياة اليومية، المصارعة، إلخ) لم يتم استذراعها في بلدي بعد.

(56) للاطلاع على أشكال جديدة من الفساد والرشوة، انظر آندري سيك، «تبعية الطريق وحساسية التشابك: ثقافة فساد في المجر؟» 2000/ 7 ـ 8 (2001 م) (بالمجرية). المؤلفات التالية تقدم رؤيا في أنظمة القيم والمعتقدات المتغيرة لأهالي المجر عبر العقد الماضي: رودولف آندوركا، تاماس كولوسي، ريتشار روز، وغيورغي فوكوفيش (محررين)، **مجتمع تغير: المجر من منظور زماني ـ مكاني** (بودابست: مطابع جامعة أوروبا الوسطى، 1999 م)؛ غيورغي تشبلي وآنتال أوركني، «التغيير الاجتماعي، المعتقدات السياسية، والتوقعات اليومية في المجتمع المجري» في كتاب جي. إم. كوفاتش (محرراً) بعنوان **انتقال إلى الرأسمالية؟ الموروث الشيوعي في أوروبا الشرقية** (نيوبرونزويك، نيوجيرسي: ترانستاكشن، 1994 م)؛ غيورغي تشبلي، فَرَنس أيروس، ماريا نيمني، وإنتال أوركني، «التغيير السياسي ـ التغيير النفسي (البسيكولوجي)»، مداخلات حلقة بحثية في بودابست رقم 28، 1996 م؛ غيورغي تشبلي وأندري سيك «المضمون المتغير للمحتوى المرضي من الأجانب في المجر» في كتاب:

م. فولَّرتُون، أندري سيك، وجوديت توت (محررين)، بعنوان **مواقف تسلطية من أشكال التحامل** (بودابست: أوج فانداتوم، 1999 م) (بالمجرية)؛ تاماس كولوسي، استيفان غيورغي توت، وغيورغي فوكوفيتش (محررين)، **التقرير الاجتماعي** (بودابست: تاركي، 1999 م، 2001 م)؛ بيتر روبرت وإيلديكوناجي، **دولة توزيعية أم مواطن معتمد على نفسه؟** (بودابست: تاركي، 1998 م) (بالمجرية).

(57) إن عدداً كبيراً من المؤمنين في المجر يرفضون الصراع بين الكنائس التقليدية والحركات الدينية الجديدة. بدلاً من الاختيار يميلون إلى اعتماد مبدأ الانتماء الثنائي والثلاثي (انظر كاماراس، «الكوكبية والمحلية»).

(58) من ضوابط الحكم وتقييداته ثمة الصلاحيات الواسعة الممنوحة للمحكمة الدستورية والموقع التوسطي الضعيف الذي يتمتع به رئيس الجمهورية وقد تم اقتباسهما من القانون الأساسي Grundgesetz الأغاني، في حين أن مؤسسة التحقيق في الشكاوى ضد موظفي الدولة مأخوذة عن البلاد الاسكندينافية.

(59) انظر زنتاي، «هدايا». يقدم «وادي كريشنا» السوموغيفاموسي نموذجاً مثيراً لتمازج الثقافات في المجر. فهذه الجالية الدينية ما لبثت أن مدَّت جذوراً عميقة في تربة عالم المزارعين المحليين حتى أن النص الإنجليزي الأصلي(؟) لطقوس كريشنا جرى دمجه بألحان الأغاني الشعبية المجرية الشائعة في القرية.

(60) غير أن التورط الأخير لمؤسسة ديلوات وتوش المحترمة بأكبر فضائح الفساد في المجر بعد 1989 م، الإفلاس الملتبس لمؤسسة مالية عائدة للدولة، البوستابانك، يلقي الضوء على هشاشة ثقافة الأعمال الغربية التي يزعم أنها محصَّنة ضد العدوى. للاطلاع على سلسلة من ممارسات الأعمال وأشكال التلاقح الاقتصادي، الملتبسة والمثيرة للشكوك في عملية الخصخصة، انظر سيك، «تبعية الطريق».

(61) قارن مع لغة الاتحاد الأوربي الخطابية الزاعمة للتفوق الثقافي الأوروبي والمهللة لنموذجها الرضائي الفريد، نموذج التعددية القائم على «الوحدة في التنوع»، وإلخ.

(62) المرجع الأساس مقالة منسية منذ زمن بعيد للكاتب لايوش ليوبولد بعنوان «رأسمالية قائمة على التظاهر»، كُتبت سنة 1917 م؛ انظر **ميدفيتانس** 2 ـ 3 (1988 م)للاطلاع على مقارنة مثيرة، انظر أوليغ خارخوردين «الفرد السوفيتي: أصل حيوان متظاهر»، في فَذَرْستون وآخرين (محررين)، **حداثات كوكبية**.

(63) تنتمي أشكال الغموض هذه، بالطبع، إلى الحالة السوية للعلاقة مع موطن المصدِّر الثقافي أيضاً. وأشكال السلوك الرديء بما فيها النفاق والذوق المريب هي الأخرى معروضة للاستهلاك الكوكبي. غير أنها تميل إلى أن تصبح محلية. دعوني أورد عدداً من الأمثلة المأخوذة من الماضي القريب دون أي قصد لبناء ثنائية شرقية / غربية: أقْدم المستشار هيلموت كول في ألمانيا بانتهاك قانون الضرائب لصالح حزبه في حين سطا الرئيس الراحل فرانيو

توجمان على الأموال العامة لصالح عائلته. أضف إلى ذلك، لم يتعرَّض رئيس وزراء سلوفاكيا السابق، فلاديمير ماجيار، للإدانة بشأن قيام جهاز المخابرات باختطاف ابن منافسه الرئيس ميكال كوفاتش قبل عامين. من الصعب أن نتصور أن الرئيس كلينتون كان قادراً على النجاة بعد اتهام من هذا النوع، وهو الذي تمكَّن من مراوغة فضيحة لوينسكي. أو هل كان بوسع كلنتون أن يبقى في المنصب لو أنجبت لوينسكي طفلاً؟ مؤخراً كانت لوزير مجري (في حكومة تحترم قيم العائلة المسيحية) علاقة غير شرعية مع سكرتيرته التي ما لبثت أن أنجبت له طفلاً. لدى كتابة هذه الدراسة كان الوزير لا يزال على رأس عمله.

(64) ثمة، على أية حال، عدد كبير من الأمثلة الجدية عن التحوُّل الطارئ على المعنى. ففي حين يتحول معظم أعضاء الحركات الدينية الجديدة في الغرب إلى العزوف عن النزعات الاستهلاكية، نرى كثيرين منهم في المجر يلوذون بالغرق في بحر الاستهلاك. وفي حين تقوم التعددية الثقافية عادة بحماية تحرر الأقليات العرقية، فإن من شأن هذه التعددية نفسها أن تبرر فصلها وتمييزها أيضاً، حين تتم ترجمة أفكار التعددية الثقافية من قبل القوميين العرقيين في المجر (أو من قبل دعاة التطهير العرقي في صربيا، بقدر أكبر من النزعة العدوانية).